# لا أضلع تطال الضفّتين

جهاد عبيد

# لا أضلع تطال الضفّتين

سلسلة شهادات سورية -28- لا أضلع تطال الضفّتين
جهاد عبيد

صورة الغلاف: جهاد عبيد

الطبعة الأولى 2018

**تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية**
**«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس**

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر.

**الناشر:**
**بيت المواطن للنشر والتوزيع**
دمشق الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

**التوزيع:**
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت لبنان
هاتف: 750054 1 961 +
فاكس: 750053 1 961 +
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

**الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.**

# Anti مُنـدس، أصل الحكاية

**دمشق، 23 آب/ أغسطس 2011**

أخيراً، أشرقت الشمس.

نهض المواطن المناضل الطهريّ الموضوعي المتواضع من فراشه الفقير، تعتلي وجهَه سماتُ الرضا والحمد والتسليم. فتحَ كوّةً أقرب ما تكون إلى ثقبٍ في الجدار أسماه نافذة. نظر إلى السماء مبتسماً، وردّد الشعار «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة»، ثمّ تمتم: «الله يعطينا خير ها النهار».

شقّ المواطن المناضل الطهريّ الموضوعي المتواضع طريقه نحو المطبخ، في مسيرةٍ طويلة شائكة، عَبَرَ خلالها زواريبَ منزله المستطيل المائل يميناً ويساراً صعوداً وهبوطاً؛ متجاوزاً كلَّ المعوقات الجغرافية للتضاريس المعقدة للمكان، الذي شُيِّد على عجلٍ كونه بُنِيَ تهريباً في وقفة العيد الكبير.

وصل المواطن إلى المطبخ بعزمٍ وتصميم. وقف أمام البرّاد (بردى) الشامخ كالطود لحظاتٍ، ثمّ فتح باب البراد بجرأة ورباطة جأش، حاله حال كلّ المواطنين الشرفاء، مردّداً:

سـلام من صبا بردى أرقّ  ودمعٌ لا يكفكف يا دمشق

أجهش المواطن الطاهر بالبكاء، فالنسمة الباردة لَفَحَتْهُ، والنور الساطع كالحقيقة أبهره، والبياض الطاغي -لجوف البراد (بردى)- داعب شغاف قلبه الرقيق، وأيقظ في نفسه تداعياً حرّاً لذكرياتٍ ساقت عوالم روحه -الطاهرة المرهفة- إلى زمنٍ مناسبة قصيدة أمير الشعراء.

كفكفَ المواطن الموضوعيُّ الدمعَ، ومسح مخاطه عن شفته العلويّة بكبرياء، ثمّ تناول كسرة خبز تَرك لها مساحة شاسعة رحبة في البراد (بردى)، إيماناً منه بالحرية.

أنهى المواطن المتواضع فطورَه بسلام، شكر المولى: «الحمد لله، من رضي عاش».

بطبيعة الحال، تابع المواطن الوطنيُّ المناضل الطهريّ الموضوعي المسيرةَ بتفاؤلٍ وأمل، حاملاً مشعل النور الذي أضاء دربه بعد الانقطاع المتوقّع دائماً لـ (تحيّة كاريوكا)؛ الأمر الذي جعل منزله معتماً كالقبر، وصل إلى مسمار الملابس بسلام، وبدأ -دونما إبطاء- إنجازَ خطوة ارتداء ثياب العمل، منشداً بحماسةٍ تعينه على ثقل المهمّة، وترفده بالعزيمة المطلوبة لإتمامها «سورية يا حبيبتي أعدت لي كرامتي أعدت لي هويتي». فعلاً تكلّلت العملية بالنجاح. نظر إلى نفسه في المرآة مستمتعاً فخوراً بما أنجز وحقّق... لحظة!! «شو هاد؟!». انتبه المواطن المناضل بلمحةٍ خاطفة -وهو اليقظ اللمّاح حاضر البديهة- إلى خللٍ حَرِج في ياقة قميصه؛ على الفور وبلا تهاون أو تكاسل، وبعيداً عن كلّ أشكال البيروقراطية، وبكامل المسؤولية الوطنية والقرار الحرّ اللامركزي، أخذ زمام المبادرة بنفسه -دون العودة إلى أيّة جهة مختصة- وبدأ عملية الإصلاح. دأب -بجهد منقطع النظير- على

تفكيك ربطة عنقه، وحلّ عقدها المتراكمة، أمسك بطرفها وسحبها بمنتهى الشجاعة، أعاد إصلاح الياقة بحركة تصحيحية واحدة، وعندما نظر إلى ساعته، اكتشف احتمال تأخّره عن عمله، ولضيق الوقت، وحرصاً منه على المصلحة العامة، رمى ربطة العنق جانباً، على أن يعاود إصلاحها في الزمان والمكان المناسبين، وكي لا ينسى، قام بإدراج هذا الهدف على جدول أعماله، وزيادةً في الحرص قرّر، بمجرد وصوله إلى مكان عمله، تشكيل لجنة خاصة؛ لمتابعة الموضوع ذي الصلة. أكمل المواطن المتواضع مسيرته -وهو الحذر الحريص اليقظ- وصولاً إلى باب المنزل، حيث ركن حذاءه قبل أن يخرج. توقع عودة (تحية كاريوكا) في أيّ لحظة: راقصةً متراقصةً مهزوزةً مهتزّةً، بتردّدات مختلفة ارتفاعاً وهبوطاً، ما من شأنه أن يضرب البراد (بردى) -خاصته- بالصميم، فبادر، بمنتهى الجرأة والصراحة والشفافية، معتمداً على مرجعيته الذاتية الوطنية الخالصة، ومن دون أيّ تدخل خارجي، وقطع الطريق على (تحية كاريوكا) بفصله القاطع الرئيس للمنزل كلّه... تجهّم، ردّد الشعار مرة ثانية، تبسّم، توكّل وخرج.

استقل «السيرفيس» مع عددٍ من الشرفاء أمثاله، وانطلقوا مطروبين بموّال مواطن مناضل مسؤول شرس، صدحت بصوته «بافلات راديو السيرفيس» مندفعاً مدافعاً بحجج مدفعية دامغة؛ وتفاصيل بيّنة جليّة وأسباب واضحة لا تقبل الشك أو الريبة، بصوته الحر وحسب، يدرأ عن البلد هجمة همجية محبوكة مسبوكة مطبوخة وموجهة، لضرب القيم الإنسانية، والأهداف القومية، واللحمة الوطنية، والمسيرة الإصلاحية، والتعايش السلمي والحياة الاجتماعية، فضلاً عن... البنية التحتيّة.

تماماً عند هذا المنعطف، وفي هذه اللحظة التاريخية، وتحديداً عند عبارة البنية التحتيّة، هبط «السيرفيس» في خندقٍ في منتصف الطريق؛ حاول السائق الانعطاف والهرب من تلّة إسمنتية ناتئة فاجأته، على الرغم من وجودها منذ ما يربو على خمسين عاماً، لكنّ السائق كان مواطناً مقصراً، قليل المعرفة، ضعيف الانتماء، لم يستطع التحليق والطيران أو التسامي والارتقاء فوق المعوقات والتحديات المطروحة أمامه، ولأنّه مهمِل، ضعيف المبادرة، رجعي، مغرَّرٌ به، لم يستبدل بـ«راديو السيرفيس» العادي المتخلّف «راديو ديجتل» حديثَ الطراز متوافقاً مع متطلبات المرحلة وما تقتضيه من تطوير وتحديث، فكانت الطامّة الكبرى: من شدّة السقطة وعزم الارتطام، انزلقت إبرة موجّه تردّدات «الراديو» لتلتقط أحد تردّدات الإذاعات العميلة التي صدح -عبر أثيرها- صوت وغدٍ مشبوهٍ مُتآمر، يبرطم بكلمات ومصطلحات مغرضة معيبة تخدش الحياء والانتماء، وتشوه العقول وتنال من عزيمة الأمة؛ مفاهيم شيطانية عجيبة ومصطلحات مشوّهة غريبة، «لا حول ولا قوة إلا بالله»، هبط «السيرفيس» فهبطت معه أحشاء المواطنين المعويّة -الغليظة منها والرفيعة- والقنوات الصفراوية والحمراوية والبرتقالية، والمرارة والبنكرياس؛ انزلقت الإبرة، فانزلقت معها الفقرات العجزية والقطنية وانمعست الغضاريف المفصلية، وقُرطت الألسنة، وتكسّر بعض ما تبقّى من أسنان المواطنين الصالحين الشرفاء الطيبين.

ولكن، على الرغم من الألم وجلل المُصاب، صرخ المواطنون المناضلون الطهريون الطاهرون الموضوعيون المتواضعون الشرفاء بصوت متحشرج متألّم مخنوق، لكنّه واثق: «تسقط المؤامرة الكونية». في المساء شعر المواطن بالألم والإعياء، تشوّشت أفكاره، لم يستطع

تحديد مركز الألم بالضبط، لم يكن قادراً على معرفة سبب ما حلّ به؟! أَهي سقطة «السيرفيس» في الخندق، أم السموم التي تجرّعتها أذناه من المحطة العميلة المغرضة؟! اختلط عليه الأمر.

راح يكرع ما تيسّر من أعشاب طبيّة مختلفة، ثمّ عمد إلى المشروبات الروحية، وبعدها أخذ يقرض مسكّنات الألم المتداولة، دون جدوى. حاول الالتفاف على الوجع، جرّب التغاضي عنه وتناسيه مردّداً -بصوت جهوري واضح- كلّ الشعارات القومية والمنطلقات النظرية للأحزاب التقدمية؛ لجأ إلى الأغاني الوطنية الحماسية الملتهبة، ثمّ نهض واعتمر قبعةً وراح يمشي نظاماً منضماً، وسافر بذاكرته إلى المهرجانات القطرية، والاحتفالات المحلية، والأعياد الرسمية والمؤتمرات، والتدشينات والمناسبات... لا جدوى، كان الألم شديداً.

لم يعد للمواطن المناضل حيلة؛ عليه مواجهة الطبيب. عزم وتوكّل، وقصد -لذلك- أشهر طبيب في البلاد كي يضمن الخلاص من هذه الآلام التي غزته روحاً وجسداً. خرج من بيته ليجد طابوراً من المواطنين الشرفاء المعلولين، يصطفّون في رتلٍ امتدّ على طول مسيرته، من باب منزله حتى باب عيادة الطبيب، ولأنّه مواطن محترم، تسامَى فوق ألمه، صبر واحتسب، وعاد إلى آخر الطابور منتظراً دوره بعزّة نفس.

طرق باب الطبيب ودخل.

لم ينبس الموجوع ببنت شفة، أدهشته هالة الطبيب: حضور مهيب، حكمة جليّة، فيض من نور إلهي. ابتسم الطبيب ابتسامة العارف، وقال: حتى أنت يا بروتس؟

فوجِئ المواطن المُتألمُ بقدرةِ الطبيب الخارقة، وسرعته في تحديد المشكلة، على الرغم من أن اسمه كان المناضل الطهري الطاهر الموضوعي المتواضع الشريف المحترم، وليس بروتس، لكن لا بأس، عدّ تشابه الأسماءِ هنا تفصيلٌ سخيف. أضاف الطبيب: «مممممم، مندس».

تعوّذ المواطن بالله، من أين أتاه «فايروس» المندس اللعين؟!!

أوضح له الطبيب -بكثير من الدقة والموضوعية والهدوء- وبعد البصيرة ونفاذ الرؤية، أسباب هذه الجائحة التي أصابت البلاد، وألمّت بالعباد المناضلين الطهريين الطاهرين الموضوعيين المتواضعين الشرفاء.

«والحل؟!»

«Anti مُندس». قالها الطبيب ونهض، مبتسماً هادئاً متيقناً من صحّة العلاج.

«فتاح تمّك».

انصاع المواطن المبهور شاكراً ممتناً.

دسّ الطبيب له مسدساً في فمه، وقدّم له «كبسولة» صغيرة من الرصاص الحي:

«فيها الشفا».

فعلاً شعر المواطن المناضل الطهري الطاهر الموضوعي المتواضع الشريف براحة لم يكن ليحلم بها مطلقاً، تألّقت روحه، واسترخت نفسه، وذهب الألم بلا رجعة.

## الآن، هناك وهنا، أنا الغبار

**دمشق، 18 كانون الأول/ ديسمبر 2016**

الآن، هناك وهنا، صار للغبار معنى جديد!

الآن، هناك أو هنا، أصبح للفاجعة لونٌ لا ينتمي إلى الطيف، وموسيقا غير قابلة للعزف!

الآن، هناك كما هنا، صورة لا تتّسع لها عينُ حيٍّ.

الأنشودة تُعاش الآن، لحظة بلحظة، تُرى، لا تغنّى أو تلحّن هنا، ولا ترتّل أو ترنّم هناك!

الآن لا صلاة لي، ولا عليّ سلام، «فما ولدتُ، ولا مِتُّ، ولن أموت؛ كي أُبعث حيا». فأنا غُباركم إذاً.

أنا الغبار الآن، حاصروني إن استطعتم، وهنا سمَوْتُ، فامنعوا عنّي التسامي والهواء إذا ظننتم أن للريح أقفالاً تكبّلها، بُدّدتُ عنكم، واستُجمِعتُ الآن منكم، وفيكم، هنا انطلقتُ، أصبح لي معنى جديدٌ هناك لا يشبه اختناق صوتكم بالمراثي، كان نزيفي أوضح من آهاتكم على جراحي، ودمي المسفوح على عتبات محاربكم أحرَّ من نبض عروقكم، وأجلَّ من إيمانكم، وأقدسَ من جلود وجوهكم

بعد الوضوء. لا تحاولوا الدنوّ من ألمي ولا تقاربوه، لا تطؤوا أثيري، فأصابع طفلتي لم تزل ساخنة، منثورة الآن هنا وهناك، إنها حتماً أطهر من آيات بياناتكم.

أنا غباركم الآن، فحاذروني.

عاهدتكم على الدم، بعتم دمي؟! ولا صوت لي في سوقكم إلا شهيقي وزفيري، ولا حول لي في عهركم سوى حُلمي الذي صلبتموه على بدني، أنا الغبار الآن، ولم يبقَ ما أخسره، باتَ الآن لي وحدي أنا، فلا تسرقوا حزني. هو لي وحدي. لا تشتروا ألم اغتصابي وعذابي فهو لي وحدي. لا تنهبوا بوحَ تحطّمِ بابِ بيتِ أبي، ذاك البوحُ لي وحدي، ولا تتسابقوا في تجارة خطأ تبدّلِ واختلاف الأحذية في أقدام أطفالي، لحظة الرعب، فأنا الغبار الآن. ويحكم، حتى ذاك الرعب لي وحدي أنا.

وثّقوا سلال إغاثتكم كما تشتهون، سجّلوا ندواتكم محاضراتكم مؤتمراتكم، استعرضوا فقهكم حكمتكم حكمكم سلطتكم، مجّدوا أبطالكم، أسيادكم، اسرجوا خيول حروبكم، دقّوا طبول مجدكم، وهللوا وصفقوا لنصركم، تقاسموا أرزاقكم، تبادلوا نساءكم، شاركوا الشيطان ربحكم، صلوا على من شئتم، اعبدوا أنّى أردتم، اكفروا إذا رغبتم، ولكن، لا تقربوا وجه أمي المعفّر بالذهول، لا تختلسوا عينيها المعلقتين بسراب سنين شقائها، لا تتسوّلوا على حضنِها دراجة حفيدها المحطمة، فتلك الأم لي وحدي أنا، وذاك الوجه لي وحدي، ولي ذهول عينيها، ودمعها، وقهرها، وصبرها، ولي خذلانها في دينها وربّها وبالعالمين وبي، لي سخطها، وحقدها، وحبها، فأنا الغبار الآن، وبات كل شيء هنا أو هناك، لي وحدي أنا.

أيتها الأمم الرقيعة، يا عربان أمّتي الجرباء، يا غربان الليل، يا جيران الغفلة، يا إخوان الشياطين، يا نظام القتلة، يا معارصةً رثّة بخسة رخيصة الخُلق، سرقتم منّي كلّ شيء؛ فلن تحصلوا على ندمي، ولو تحالفتم مع الله عليَّ، أنا الغبار الآن، إكليل اختناق على رأس البسيطة، لن أهجر رؤوسكم، ولو طاردتني الريح، ولن أستريح على جدارٍ تهدّم، فأغفو وأُنسَى كالعابرين الخفاف، لن أقبل باسمي مخطوطاً في لوحة معدنية ملوّنة معلقة على مفترق، لن أقبل طيّي في ديوان شعر تافه، أو حتى عظيم؛ أن أكون عنوان قصيدة موزونة لشويعرٍ مهاجر ينتظر الفتات كلّ شهر، لا أقبل، لن أقبل لاسمي أن يكون علكة في فم مومس تلقي افتتاحية مهرجان أو مؤتمر وطني... سلبتموني كلّ شيء، ولم يعد ما أخسره فصرتم الآن كلّكم لي، أنا الغبار، لي ماضيكم وحاضركم، صباحاتكم ومساءاتكم، ليلُكم ونهاركم لي، كوابيسكم، أحلامكم، أنفاسكم، لي حناجر حلوقكم، شفاهكم، لي ياقات ثيابكم، وطعم خبزكم وجرعة مائكم، أفراحكم، أتراحكم، لي زوايا صدوركم، وحبر قلوبكم، غناؤكم، بكاؤكم، صيامكم، صلاتكم لي، عروقكم، وعقولكم، ولي ارتعاشات أجسادكم، فأنا الغبار الآن، هنا أنا، وهناك، وأنتم، وكلّ شيء صار لي.

## حمار طروادة

**دمشق، 14 كانون الثاني/ يناير** 2017

على مفترقٍ أغلق طريقي كجدار إسمنتي، فجأة حاصرتني ابتسامته، قفزتْ إلى ذاكرتي آخرُ كلماتٍ قلتها لهم قبل أن أنهض من مقعدي غاضباً، وأصفق الباب ورائي وأعتزلهم.

كان الرجل الستّيني واسع الاطلاع، عميق الخبرة، ذا صدرٍ رحب، فكلما جمعتنا مصادفة ما ابتسم لي ابتسامة العارف المترفّع عن حماقتي تلك، وعن طيشي، وتثاقفي، وقلّة خبرتي ومراهقتي السياسية؛ ما جعلني أكافح –حتى الآن– شعوري بالخجل على ما تفوّهت به من كلمات حينها.

إنها المصادفة تجمعنا من جديد، ابتسامته المترفعة أفقية التردد هي ذاتها، غير أن صلعته الجرداء اتسعت لتصبح بمساحة وطن قاحل. ومن جديد، أيقظ لقائي به ذلك الشعور المزعج بالخجل. «أهلا أستاذ كيف حالك؟». سؤالي التقليدي البسيط يُفترض أنه سؤال عابر، كجملة زائدة لا محل لها من الإعراب، لكنه فتح الباب –خلاف ما أردت أو رغبت– على سرد تاريخي طويل حول الصراع الطبقي، والوضع

الإقليمي، والمصالح الدولية، وتوازنات القوى، والبلد العالق في أتون المؤامرة الكونية، وموقعه الجغرافي الخاص، ووضعه الجيوسياسي الخطِر، و و و، «يا ربّي دخلت عليك»، بدا الرجل وكأنه قد سقط توّاً على مكان آهل، بعد عزلة طويلة عن الجنس البشري، كأنه كان عالقاً في إحدى غابات الأمازون؟! أو ربما كان منفياً إلى جزيرة نائية!! بدا مهتماً وشغوفاً بالكلام، وكأنه ينتزع فرصة وجود إنسان ما يصغي إليه! انثالت كلماته وأفكاره دونما توقف، وراح لسانه يخفق داخل فمه الأدرد كخرقة خفيفة نُشرت على حبل غسيل في يوم عاصف.

مداخلته الطرقيّة وافرة التفاصيل، كانت تعويضاً كاملاً عن سنوات انقطاعنا الطويل، اكتشفت من خلالها أن الرجل قد حطّ رحاله الفكرية عند المدرسة السياسية الوطنية السورية الروسية اليسارية الشيوعية المُحدثة، هو الذي بدأ حياته بكداشياً مُرّاً.

الحقيقة لم تكن هذه مفاجأة بالنسبة إليّ، فهذه نهاية رحلة سياسية كلاسيكية متوقعة لرجل مثله، ولكن ما لم أكن أتوقعه هي وجهة نظره فيما آلت إليه المحنة، قال:

«دير بالك هه» نحن لم نكن يوماً مع أيّ نظام استبدادي شمولي في العالم، ولن نكون، ولكن هدفنا الاستراتيجي -من موقعنا اليوم- هو تفكيك هذه المنظومة من داخلها».

عند هذه الفقرة بالذات شعرت بمهابة اقشعرّ لها بدني، حلّقتُ في عوالم الميثولوجيا وطقوس السحرية والأسطرة، خُيّل إليّ أنّني في حضرة المقاتلين الإسبارطيين العظماء، رأيت الأستاذ على هيئة حمار طروادة المهيب، يشبه مفخّخة بشرية على شكل حمار جميل، قد تنفجر وتتشظى مناضلين في أي لحظة وكل مكان.

عادت بي الذكرى بعيداً إلى تفاصيل لقائنا الخلافي الأخير، وإلى الحوار الذي انتهى به، وإلى كلماتي التي طالما أشعرتني بالخجل؛ «هذه السلفيّة الفكرية السياسية لا تختلف عن الدينية أو الجهادية أبداً، وقد تغدو أخطر في بعض الأحيان؛ إنها مثل الجزرة اليوم تحملونها في أيديكم. احذروا، غداً قد تنتقل إلى مكان أأأأخ، آخر».

ابتسمت شفتاي ابتسامته ذاتها -أفقية التردد- ثم شكرته على جهده، وشجّعته على هدفه البديع، وتمنيت له كل التوفيق.

كان عليّ أن أشكره بشدة، فحمار طروادة الجميل قُتِل في داخلي وإلى الأبد شعوري اتجاهه بالخجل.

## «البَخش الوطني» والتوازن الاستراتيجي

**دمشق، 26 كانون الأول/ ديسمبر 2016**

«روح خلّي بيّك يشتريلك». جملة أجهزت على حُلم.

على الرّغم من خسارته سبعة أضعاف مثيلاتها العامرة الآهلة، حرّر «الرمز» حطام نصف مدينة صغيرة مهجورة، إلا أن النظر إلى نصف الكأس الملآن كان خياراً وطنياً حتمياً جامعاً، لا بد منه، ولا رجعة عنه، فاجترحت الجماهير الكادحة بمعيّة الرمز مفهوماً جديداً للكرة الأرضية، أطلقوا عليه اسم النصر. أما كيف حدث ذلك التفاعل الفكري السوريالي وأنتج مفهوماً كهذا، فسؤالٌ بات بلا قيمة اليوم.

انطلاقاً من التفاعل الفكري السوريالي آنف الذكر ذاته، ألهم المُلهم الجماهير الكادحة، بمعيّة الجبهة الوطنية التقدمية هذه المرة، إلى ضرورة حتميّة أخرى، وهي خلق توازن استراتيجي مع العدو (المهزوم)، فكان أن رافقت محاولات ولادة التوازن تلك ضائقة اقتصادية معيشيّة شديدة ألمّت بالعباد، وأنهكت البلاد زمناً طويلاً. ولما كان خياراً وطنياً حتمياً وجامعاً -أيضاً- ما كان من الجماهير الكادحة -بطبيعة الحال- إلا أن صبرت واحتسبت و... توازنت.

آن ذاك، في تلك المرحلة التاريخية من عمر المسيرة النضالية الوطنية، بعنوانها العريض كقافلة للمقاومة والممانعة، قَسّمت الجماهير الكادحة أبناءها إلى أجيال وفئات عمرية مختلفة، وفق تقويم سوري غريب خاص مُبدع تأريخاً وتوثيقاً. صِيغَ التقويم بحسب السلعة الاستهلاكية، توافرها أو فقدانها من السوق المحلية، فقالت الجماهير: جيل البقرة الحلوب، مواليد النيدو، جيل ما قبل الموز، مواليد جبنة كيري، جيل الزيت الأحمر، مواليد محارم كنار، جيل الحمرا بلا فلتر، مواليد السردين أبو شنب، جيل الإيبلا الزرقاء، مواليد السطل «المبخوش»، وهكذا... وللتوضيح إن غرابة تصنيف هذا الجيل تحديداً (سطل سمنة النواعير المبخوش) يتسق ويتوافق مع غرابة المفاهيم المُجترحة أساساً والناتجة عن ذاك التفاعل الفكري السوريالي العجيب! ويوازيه في شدة واتجاه المسيرة الوطنية، ويشكل معه محصلة القوة للنصر وللممانعة والمقاومة وللتوازن الاستراتيجي مع العدو المهزوم؛ إذ حدث أن أوكلت المؤسسات العامة التابعة لوزارة التموين مهمّة «بخش» سطل السمن المُباع إلى موظفين خاصين من ذوي الخبرة والكفاءة بدق المسامير، وذلك حرصاً منها على ألا يباع السطل ثانية في السوق السوداء، فكانت عملية «البَخش» تلك من أهم الممارسات الوطنية التي وقفت سداً منيعاً أمام استغلال الجماهير الكادحة من قبل عملاء الرجعية والإمبريالية، بغض النظر عن أن عملية بيع السطل بعد «البَخش» كانت تتمّ بطبيعة الحال على رؤوس الأشهاد ما إن يخرج «المبخوش» إلى النور؛ إلا أنها كانت تجري خارج حرم المؤسسة العامة، وهنا تصبح المسؤولية فردية خاصة لا وطنية عامة، ليجسّد اختيار الجماهير الكادحة بين «المبخوش» داخل المؤسسة الوطنية أو «المبخوش» خارجها، أرفع

أشكال حرية المواطن وأبهى صورها، «فبين الباخش والمبخوش يفتح الله».

يجب ألا نُغفل في هذا السياق أن عملية «البَخش» لم تكن اعتباطية أو عشوائية، فقد أُقرّت بعد عديد اجتماعات تشاورية، ووفق الهيكلية التنظيمية الدستورية للدوائر الحكومية ذات الصلة، وبحضور مندوبين عنها، وبموافقة السلطتين التشريعية والتنفيذية، وتمّ اتخاذ القرار بتنفيذها أصولاً وفق قواعد ممارسة الديمقراطية، بإشراف متخصصين في «البَخش الوطني»، وذلك بعد مصادقة القيادة القطرية للحزب وموافقتها على عملية «البَخش»، حيث أوصت الأخيرة بتشكيل لجنة متخصصة قامت بتحديد طول المسمار أداة «البَخش» وعرضه ونوعه «10 سم خشابي»، وتم شراء المسامير عبر مناقصة عامة أعلنت عنها وزرارة التموين في الصحف الرسمية، وقامت بتوزيعها وتسليمها كعهدة على ذمة عمال «البَخش» الذين عُيّنوا وفق سبر دقيق وعميق لولاءاتهم الوطنية وانتماءاتهم القومية، ونشاطاتهم الحزبية، ما جعل من ذاك المسمار «10 سم خشابي» وساماً رفيعاً يحمله «البخّاش» في جيب بزّته الرسمية في الاحتفالات والفعاليات والمناسبات الوطنية خاصةً.

يُروى في هذا السياق أن فتى من جيل ما قبل الموز كان يلهو في زقاق حارته الضيق؛ يجرّ قطاراً من علب فارغة صنعه أخوه الأكبر، مواليد السردين أبي شنب، ما إن رأى طفلاً من أبناء الجيران يجلس على حجر مهمل أمام باب داره؛ حتى جرّ قطار السردين خلفه في اتجاه الطفل، قاصداً اللعب معه، فصُدم بمشهدٍ أذهله؛ إذ كان الطفل يلتهم إصبع موز، غامر أبوه الذي كان موظفاً «بخاشاً» في إحدى المؤسسات

التموينية العامة، وهرّب إصبع موز داموري في جيب معطفه الداخلية أثناء اجتماع خاص «للبخّاشين» مع مسؤول كبير في الوزارة، على هامش أحد المؤتمرات القطرية.

قال الطفل للفتى المصدوم، وهو يتلذذ بالتهام الموزة على مهل: «شو ولاه! بتحبّ الموز؟!»

كانت عينا الفتى تلتهم إصبع الموز أسرع من فم الطفل، وأفكاره انثالت بأخيلة طعومٍ مركّبة لا نظير لها في الدنيا ولا في الآخرة، ولكن بقي طعم الإجابة عن سؤال صاحب الموزة هو الأهم، فباغته الطفل ثانية بالسؤال الحلو: «ما قلتلي ولاه، بتحب الموز؟؟». أصبحت الإجابة عن السؤال أصعب من التخلّي عن حلم يقظته بقضم قطعة من إصبع الموز الذي بدأ يتلاشى بين أصابع الطفل! كيف سيحرك لسانه ويستخدمه بنطق أحرف نعم معطلاً شعوره المتخيل بالطعم! استجمع الفتى قواه، وكان سؤال الطفل له مرتين قد حسم ارتيابه وشكّه، أصبح مؤمناً بأن قطعة الموز الصغيرة باتت داخل فمه، لكأنّ إجابة الفتى قد خرجت من عينيه صوتاً جهورياً واثقاً: «أي والله».

«روح خلّي بيّك يشتريلك». قالها الطفل للفتى، بحالة الثقة والحسم نفسها، وهو يبتلع آخر قضمة من إصبع الموز الداموري.

## علم النفس اللّوني والربيع السوري «المُبرقع»

**دمشق، 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 2016**

يرغب بعضٌ من متابعي حركة تطوّر ومسيرة الربيع العربي في عدّ الربيع منطلِقاً من «الثورة الخضراء» في إيران عام 2009، والحقيقة أنّ هذه الرغبة لا تشكّل قضية خلافية قط؛ إذا عدَدْنا أن الربيع العربي انطلق من تونس الخضراء؛ وبدايته، في الحالتين كلتيهما، كانت خضراء.

إذا كانت رمزية المفهوم السياسي الثوري لمصطلح «الربيع» تعني التغيير والتجدد والبعث والنهضة، فإن هذا المفهوم يتسق تماماً، ويحاكي منطق الطبيعة، وحقيقةَ أنّ الدلالة الأولى والأهم لفصل الربيع هي تعدد الألوان وتنوعها، وعلى رأسها الأخضر.

ربما ليس مصادفة -قطّ- أن بدأ الربيع السوري من حوران الأبية؛ مهد الثورة ومهد الأهزوجة الشعبية الملونة «طير أخضر طير «مبرقع»... بالليل يا عيني بالليل»، التي حملت كلمات مطلعها ألواناً بالغة في دقّة تطابقها -دلالياً- مع الواقع السوري الراهن؛ الأخضر، «المُبرقع»، الأسود.

أتت الخطوة اللاحقة في مصير ربيعنا السوري «المُبرقع» مع قرار

هيئة الألوان المتّحدة بتعيين السيد «الأخضر» موفداً دولياً خاصاً إلى سورية، في أيلول/ سبتمبر 2012، وذلك خلفاً لسلفه «الأسود»، بينما كان الأصفر القلق أميناً عاماً لهيئة الألوان المتحدة منذ 2007، وجددت له ألوان الطيف الدولي مهماته الرئاسية كافةً، بعد انتهاء صلاحيته في 2011، حتى 2016، ما يعني أن هذا الأصفر قد أرخى سدوله القلقة على أخضرنا بكلّ أنواع الهموم لنبتلي بالأحمر الذي صبغنا.

تجدر الإشارة -هنا- إلى أنّ الأحمر كان دائماً حاضراً، وبقوة، منذ بداية الأخضر، ولمّا يزل حتى الآن. في هذا التوقيت، كان النزاع قد بلغ أشدّه حول راية الدولة، فانقسمت الجماهير بين الأحمر والأخضر. ويجب التنويه في هذا السياق إلى أن الأطباء المتخصصين في طبّ العيون يؤكدون أنّ المرضى المصابين بعمى الألوان، باستطاعتهم أن يميّزوا بين لونين فقط هما: الأخضر والأحمر، مع وجود بعض التشويش في نقائهما.

يشير علم النفس اللوني، أو علم «سيكولوجيا» الألوان، إلى تأثير اللون على المشاعر والسلوك البشري، ويؤكد هذا العلم الجديد نسبياً أنّ لدينا أربعة ألوان نفسية أساسية هي: الأحمر، والأزرق، والأصفر، والأخضر. الأحمر يرتبط بالجسم، والأزرق يرتبط بالعقل، بينما الأصفر يرتبط بالعواطف، والأخضر يعبّر عن التوازن بين تلك الألوان الثلاثة.

وفي محاولة بسيطة لمطابقة واقعية هذه الألوان على واقعنا السوري الراهن -دلالياً- نخلص إلى حقيقة أنه واقع «مُبرقع» تماماً؛ فالأجساد الممزقة حمراء فعلاً، مثالنا أجساد ضحايانا، ووجوه أصحاب العقول النيّرة وحكماؤنا زرقاء، ولله الحمد (مع اختلاف شدة الزُّرقة باختلاف

حجم المخ، أو كثافة اللّحية وطلاقة اللسان)، مثالنا في هذا سياسيّونا ومشايخنا وبعض مثقفينا، ليأتي الأصفر العاطفي، وهل هناك أكثر اصفراراً وأشدّ قلقاً وأحرّ عاطفة من رئيس هيئة الأمم الملونة؟! أما الأخضر -في هذا المقام- والذي يعبّر -بحسب علم النفس اللوني- عن التوازن بين تلك الألوان الثلاثة، متوسطاً ألوان الطيف، فلا أظنّه ينطبق -بتاتاً- على السيد الأخضر الإبراهيمي، وخصوصاً أنه قد فشل في تحقيق هذا التوازن. أعتقد أن الأخضر، الذي وازن معادلة الأجساد الحمراء الممزقة مع الأشخاص الزرق العقلاء، مع الهيئات الصفراء القلقة، إنما هو الدولار الأمريكي، بلونه الأخضر المتّقد. استطراداً في الحديث عن اللون الأخضر، بوصفه سيد الألوان في أي ربيع، لقد صَنّف الباحثون في علم الألوان كلّ لونٍ بحسب طول موجته، وبحسب طاقته وأشعّته المنبعثة منه؛ فاتّصف من يحبّ هذا اللون بأنّه الأكثر محبّة، وهو حاضر لخدمة البشر، ويفضّل الهدوء، ويتّصف -أيضاً- بأنّه لطيف الطباع والمعشر، ويحبّ التميّز، إضافة إلى أنّ صفة التسامح هي الغالبة على طباعه، وهو إنسان حليم، وليس صعباً على أحدٍ أن يثق به. ربّما يعود هذا الأمر إلى الطريقة البسيطة التي يتعامل بها مع الناس، ولابتعاده -أيضاً- عن الغموض؛ فهو شخص واضح. يبدو أنه -من هذه النقطة تماماً ومن هذا المنطلق بالذات- جاء استخدام وتوظيف باص النقل الداخلي الأخضر الطويل في ترحيل البشر وتهجيرهم عن ديارهم! فللون الأخضر تأثيره الفعّال على حالات الغضب والتعب أو الأرق؛ إنه يعطي الشعور بالراحة، ويسهم في تخفيف ضغط الدم. ومن هذا التفصيل نتلمّس محبّة ولطف وتميّز وتسامح وحُلم ووضوح مُرسل الباص الأخضر.

أما في ما يتعلق بالأبيض، وبحسب علم النفس اللوني بطبيعة الحال، فهو الخليط الجامع الحاوي لكل هذه الألوان مجتمعة. وإذا ما أمعنّا النظر في مقابلة اللون الأبيض ودلالته وتوقيعه على الحال السوري، نرى –فعلياً– أن بوتين الأبيض الملحوظ قد وضع كل تلك الألوان في «الخلاط»؛ فخفقها وابتلع جميعها؛ حتى أسودها بطبيعة الحال! هنا، يعيدنا اللون الأسود إلى الأهزوجة الشعبية الحورانية، في جزئها الذي يقول: «بالليل يا عيني بالليل»؛ لنلاحظ أن أربعة عناصر سوداء كالليل طرأت على الواقع السوري في ربيعه «المبرقع»: السيد كوفي، والمستر أوباما، وداعش وأخواتها، والبرميل. لا أعتقد أنّ من الضروري –هنا– العودة إلى علم النفس اللوني للدلالة على البعد النفسي للأسود، فهو أوضح من أن يُحلَّل ويدلل عليه، لكن من الضروري –ربما– العودة والوقوف، وتحليل ومعرفة كيف طار الأخضر، وبقي «المبرقع»؟ ولماذا لم «يهدّي» الأخضر فوق أزرع؟! ... بالليل يا عيني بالليل...

## ناصر بندق «لا أكثر ولا أقل»

**دمشق، 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 2016**

ناصر بندق شاعر بلا ديوان، أو نص مكتوب، يرسم القصيدة مشافهةً بالكلمات. كان يقول فحسب، ومن سمعه كان يكتب ويحفظ كلماته في قلبه قبل عقله. فما الذي يكتبه الآن في محبسه وعلى جدران زنزانته الضيقة؟

قبل أن يفتح عينيه على سبع قناطر حجرية زرقاء من جيل تلك الأرض، سبعة ينابيع ثرّة، ومُهر، ومِرَقٌّ عجين، دغدغت وشوشاتها وصهيله وإيقاعه مسامعَ ناصر، واجتاحته رائحة البنّ المهيّل المطحون، وخبز التنّور، وخمائر الجبن البلديّ، حتى أسكرته. حدث كل هذا قبل أن تطأ شفتاه الثدي.

وُلِدَ بالفطرة عاشقاً للقمح؛ على تلّة واثبة اسمها (ريمة)، تعرّف إلى الله، بلا تكلّف أو إلحاح، ومن هناك بدأ بهدوء النَّزِقِ رحلة البحث عن لغته ومعانيه.... ولمّا يزل.

قال ناصر و(لم يكتب):

«كي تغرّد كعصفور البراري

البس معطفك باختلاف

هكذا ببساطة شديدة

لا أكثر ولا أقل»

هكذا «ببساطة شديدة» يستطيع ناصر تكثيف مفهوم التغيير، تلخيص فعل الثورة، «كي تغرد»، أو -إذا أردت أن تكون حراً- عليك أن تنتفض على ذاتك أولاً، أن تنقلب على السائد والمعتاد، هذا هو الطريق، أن «تلبس معطفك باختلاف»، فيك البداية ومنك تبدأ الرحلة، في إرادتك تكمن المعجزة، «هكذا لا أكثر ولا أقل». عندما تساءل: (ولم يكتب)!؟

«هل ترفّعتْ أنوثة الكستناء

عن شهوة الجمر؟

أم النزق ترهّل في شرايين النبيذ؟

لا أدري إن كان المطر قد رحل إثر نوبة عشق عابرة

أم هي الرمال استباحت سرير شقائق النعمان؟

لا أدري!

لربما القلب لم يعد يسمع رفيف الفراشات النهديّة

تحت لحاء الصمت».

تلك كانت تساؤلات العارف الذي يدري؛ إذ لم يوصد الأبواب على سُكنى القبور، أو يدفن جرار الضوء في الأقبية المعتمة؛ بل ترك للأمل فرجة واسعة، فآثر بدايةً أن يقول -ولم يكتب-: «هل ترفّعت»؟! فلا هي امتنعت ولا رفضت، ولا ذهبت ولا تنسّكت، ولا ماتت، لقد «ترفّعت» وحسب، ما زاد أنوثتها أنوثة، وتكثّفت رغبتها بالجمر، هامت

بالنّضج المشتهى، فكان ترفّعاً نحو ذروة العشق المطلق. كان يعلم ويدري أن ستأتي اللحظة التي تعود فيها الأنوثة عن ترفّعها، تتلحّف الجمرَ المتقد و«تكمره»، تستصرخ أنوثتها به وفيه، كيف لا!!، وهي الأمُّ، والعشيقة، والبلد، هي الثورة.

كان يعلم حين قال و(لم يكتب):

«توحّشي أيتها الدبابير

سيبقى في العنقود حبتا زبيب

ورشفة نبيذ لطائر الورور

تربّصي زوايا الكروم

وممرات البراري

...أيتها الدبابير

النحل يعرف كيف يجني الرحيق

ويملأ الجرار بالعسل الأشقر».

امتلك ناصر الإيمان بأدوار أبطال الحكاية، تصالح مع توحّش الدبابير إلى الحدود التي جعلته يتقن الأمل -في بقاء ما يسدّ الرمق- إلى أن يملأ النحل الجرار بالعسل.

رغم توحشها ودرايته بتربص الدبابير، رافقه الأمل منتظراً فيض القفير، واثقٌ أنا أنه لم يزل...

في مجد يأسه المحموم ما تنازل ناصر عن حلمه شديد الوضوح، آمن به ورعاه كما آمن بالإلهتين إنانا وأدونيس، فكان ناسكاً ورعاً بهما، صلّى في محرابهما، رعى نهاراتهما، وحرسا ليله، قال أبو أدونيس و(لم يكتب):

«كمطر يفترش فجيعته
يسند ظهره على جذع الرحيل
يحلم بأرض لا تُسفك أنوثتها».

ناصر قادر على تلمّس الجمال حتى في الفجيعة، دائم البحث عن الله فيما يرى، يَطرب للترحال والتنقل والتنقيب عن روعة معنى ما، في صوت جدول ماء ما، يرتحل طويلاً، بعيداً؛ كي ينظر إلى حجرٍ سمع أحداً يصفه بالجميل، يشاهده فحسب، أو بالأحرى، يلتقيه يجالسه، ويمضي دون أن يوثقه داخل إطار، يقول:

«لا أحب أن أراه ساكناً في صورة
أو أن أحجب الهواء عنه وأجعله حبيس ورقة
هو موجود وراسخ في أرضه
كلما اشتقته آتى إليه»

كان يبحث في سورية كلها عن ربّات الجمال التي عايشها في قريته ريمة حازم؛ حيث تفتحت ملكاته على طيب بازلتها وكحل زرقتها وصلابتها ودفء برودتها ورطوبة حرّها. لا يكلّ الحبّ، ولم يملّ الرغبة في لقاء «أرض لا تُسفك أنوثتها».

«هل ثمّة كاتب أفضل وأحقّ وأبهى من فَراش يخطّ وصايانا، على شواهد الأقحوان؟!». يسأل ناصر، وهل أكثر رفعة وحرمة من شاهدة أقحوان؟! ولا يعترف بوسام أعلى من أوسمة الماء، لم ير في رحلته -حتى الآن- أسمى وأعلى من كاحل شجرة.

فهل يأتي يوم نسمعه (يقول ولا يكتب):

«هل يأتي يوم تَكتبُ فيه الفراشات وصيتنا الأخيرة على شاهدة الأقحوان؟

هل يأتي يوم نتقلدُ فيه أوسمة الماء؟ أو نتعالى إلى ما دون كاحل الأشجار؟

كم يلزمنا من الحب حتى نطرد الصياد

كي نتعلم لغة العصافير؟

كم يلزمنا من المطر حتى ندرك

أن بين جناحي الموت والولادة زمن واحد هو (الفرح)؟

طوبى للأصابع التي تشعل فتيل شقائق النعمان في كل هذه المساحات الباردة».

كيف نطرد الصياد؟! قال، ولم يكتب: بالحب، بل بقدرٍ كبير لازم من الحب؛ بتعلّمنا لغة العصافير؛ بإدراكنا روح المطر وكنهه... هذا دين ناصر الذي آمن به، ويؤمن بأن الفرح هو الزمن الوحيد الصالح لقياس رحلتنا الإنسانية، ما أجمل وأبرأ تلك الأصابع التي أشعلت ربيعاً في كلّ ذاك القفر.

ناصر الإنسان الشاعر أكبر من محبسه القسري الذي يحجبه عنّا اليوم، ومن ظنّ امتلاكه القدرة على خنق صوته العالي الواضح جاهلٌ أحمق. سرقوا ناصر في عتمة ليل، ولكن كلماته وأفكارها حملتها الريح في وضح النهار، وذرتها الشفاه في كلّ بيادر الأرض؛ لتنبت سنابل قمح يعشقها، البارحة كما الآن أو غداً، أصيخوا معي السمع إلى صوته، وهو يغنّي:

«أصابعك في غابة الأقحوان

لا تكتبي القصيدة هذا المساء
تنحّي جانباً على أريكة اللازورد
وأنصتي لكمنجات الكرز المسافرة
في النهارات المشمسة
واتركي طائر الورور
يخبرك حكاية القطاف
ما أجمل الرقص ساعة الوجع
يا صديقة الغروب».
بعض ما قاله أبو أدونيس وإنانا، ولم يكتبه في كتاب.

## الأسطورة التي تشبهنا

**دمشق، 25 تشرين الأول/ أكتوبر** 2016

لكلّ مكان أسطورته المثالية المنسوجة من غالبية الملاحم التي جرت فيه.

كانت تشبه معظمنا، صارت تشبهنا كلنا، سواء كانت أسطورة أم واقعاً، أو واقعاً أسطورياً، أو أسطورة واقعية ربما!! ولعلها شيء أكثر من هذا وذاك؛ إنما المؤكّد أنها تجسّد النواة الجوهرية للمعرفة التي يمكن أن تتشكّل لدينا عن أنفسنا، إنها تعبّر عنّا وتفسّرنا أكثر من أيّ شيء آخر، لقد عرّت خصالنا ونشرتها للشمس.

إن ما ترويه الأسطورة ليس القصة الواقعية لما جرى، ولا القصة المتخيلة البحتة؛ إنها تروي قصة خيالية قابلة للتصديق، فيها قدر كبير جداً من الحقيقة، قصة قديمة تبقى راهنة؛ إنّها تعنينا في أعمق نقاط ذواتنا، وتنكؤنا في أبعد زوايا أرواحنا.

لعل السؤال الأول الذي يطرح نفسه بقوة في سياق أسطورة سوريتنا إنما يتصل بحدودها، من أين بدأت؟ كيف؟ وإلى أين ستنتهي؟!

(مقاربة أولى) «أوديب ملكاً».

«سوفوكل» -الذي كان يسمى «سوفوكل الورع»- كان يشغل بالَه تبريرُ الخطيئة الإلهية المنزّلة من السماء أقلّ مما شغلته مسألة إبراز انعدام اليقين في مصير إنسان يواجه سراً لا يدركه! في نظر «سوفوكل»، بدأت أسطورة «أوديب» من الإنذار الذي نطقت به آلهة «ديلف»، حيث أتى صوت إلهي يخبر الأب عن طريق الوحي أنه سيهلك بيد أحد أبنائه. إذاً لا خطيئة أوليّة هنا، لا من جانب الابن «أوديب»، ولا من جانب الأب «لايوس»؛ إنها الكلمة الإلهية التي نزلت تامّة ولا مردّ لها، والمعصومة من الخطأ في أي حال.

(مقاربة ثانية) جامع «الرفاعي» في دمشق.

الشيخ -خطيب جامع الرفاعي في كفرسوسة، وبعد أن فتح عناصر الأمن النار على المتظاهرين السلميين الخارجين من بهو الجامع- هرع نحو شاب أصيب بطلق ناري في عنقه، وأخذ يحثّه أكثر من مرة على النطق بالشهادتين؛ عندها، وبما تبقى له من قوة، شدّ المصابُ الشيخَ نحوه وهمس له قائلاً: «أنا مسيحي يا شيخ»، حينها لم يشغل بال الشيخ السنّي الرصاص الحي أكثر من انشغاله بإنقاذ الشاب المسيحي من الموت أولاً، ومن عناصر الأمن ثانياً، ولم يتصارع في عقله أو قلبه اسما يسوع ومحمد. إذاً، لا خطيئة أولية هنا أيضاً، وأيضاً، إن الشعب السوري صانع أسطورته وبطلها وحامل مأساتها، لا يشغل باله تبرير الخطيئة أو تفسير الحكمة الإلهية المنوطتان بالله، بقدر محاولته استجلاء ومعرفة وإدراك، والتعامل مع؛ هذا الحدث الدامي المستمر.

كتب «كلود ليفي شتراوس»، في الفصل الأخير من كتابه «الإنسان العاري»، يقول: «لا بدّ لنا من التسليم بأن الأسطورة لا تقدّم لنا شيئاً

يعرّفنا بنظام الكون، ولا يمكن لها أن تُنجد الإيديولوجيات المنهكة؛ لكنها تعرّفنا كثيراً إلى المجتمعات التي تنشأ منها تلك الأساطير، تعرفنا إلى مؤسساتها التي كان نظامها غير مفهوم في البداية، وتتيح لنا استنتاج بعض أنماط عمل الفكر الإنساني -خصوصاً- الأنماط الثابتة منها والمنتشرة بصورة عامة، وعلى مساحات شاسعة».

تقول «ماري ديلكور»، الباحثة في علم «الأنثروبولوجيا»: «إن الأسطورة لا يمكن فهمها قبل تفكيكها قطعة قطعة؛ إذ يمكن أن يكون لكل حادثة فيها دلالتها المستقلة تماماً». إذاً، أين الخطيئة الأولى أو الأصيلة في الأسطورة السورية؟ ما دور المأساة فيها؟!

لقد أعطت المأساة السورية أسطورتَها صوتَها، كما أعطتها الأسطورة السورية قوتَها وبريقَها. يقول «نيتشه» في «ولادة المأساة»: «بفضل المأساة تصل الأسطورة إلى محتواها الأعمق، وإلى شكلها الأكثر تعبيراً، إنها تنتصب مرّة أخيرة بطلاً جريحاً، قوّته الطافحة تقترن بهدوء المحتضر وحكمته، تلتمع في عينيه بشعلة أخيرة ومقتدرة».

كيف أصبحت مأساة «سوفوكل» هي المأساة المثلى في نظر حضارة بأسرها؟ ماذا ستصنع المأساة السورية في حضارة هذا القرن وقرون مقبلة؟ أيمكن للمأساة أن تمنح الأسطورة نفسها دون أن تضيف إليها أيّ شيء غير مستمدّ منها؟

هنا، ربما علينا البحث في عظمة هذه الأسطورة السورية انطلاقاً من أهم ميزاتها المتجلّية في التناغم الغريب بين الصوت والصمت فيها، بين ما يقال بوضوح، وما لا يقال البتّة، بين الإشارات القويّة الآتية من العمق، وبين التعويم والسطحية والابتذال، إنه لغزها الذي يمسّنا في كل مكان، ويُفلت منّا من كل مكان، كل شيء فيه قريب، وكل شيء

فيه بعيد، كل شيء فيه واضح ومباشر وكل شيء فيه غامض ومبهم، ويشترك فيه الواضح والمبهم بطرح الأسئلة ذاتها.

إن للمأساة السورية شفافية ملقاة على كثافة أسطورتها؛ إنها كشف حجاب وحجاب في آن معاً. إن الاختلاف بين الأسطورة السورية ومأساتها يتلاشى ويزداد حدّة في وقت واحد.

كل شيء وأي شيء قابل للحدوث في الأسطورة، وتتابُعُ الأحداثِ فيها لا يخضع لأيّ قاعدة منطقيّة أو سياق مستمر. بحسب رأي لـ «جان ورسيه»: إن أقطاب البناء المثالي للأسطورة هم: البطل المتقلّب، ودور النساء الجوهري الفاعل فيها، والموت.

بهذه المعاني تنطبق على المأساة السورية أركان الأسطورة كافةً، يضاف إليها البعد الزمني من ماضيها إلى حاضرها المستمر؛ لتصبح -بامتياز- الأسطورة التي تشبهنا كلنا.

## سلاح لم يُستخدم بعد!

**دمشق، 16 أيلول/ سبتمبر 2016**

أبواب الغرف الدولية السوداء الموصدة، العصيّة على الفتح، سَجنت داخلها كل الحلول الممكنة لإيقاف المحرقة السورية، هذا هو المشهد الوحيد الواضح اليوم، لا حلول عسكرية حاسمة، كما لم تُنتج كل المحاولات الدبلوماسية، واللقاءات والاجتماعات السياسية، والمؤتمرات، والحملات الإعلامية، شيئاً يستحق الذكر على هذا الصعيد.

هل طُرقت كل الأبواب فعلاً؟! هل كل الحروب أو الصراعات التي اندلعت في هذا العالم الأحمق توقفت؛ إمّا بحسم عسكري وإما بحل سياسي؟!

يجيبنا التاريخ -لو سألناه- بلا، ويضيف: إن سلاحاً بشرياً لطيفاً هائل القوة والأثر لم يُستخدم بعد، ولم يجرّب، ومن شأنه ربما -لو استُعمل على نحو صحيح- أن يوقف هذا الجنون.

تروي لنا الميثولوجيا اليونانية أحداث حرب طويلة طاحنة نشبت بين الأثينيين والإسبارطيين، حيث يسرد لنا أرسطو فانس في مسرحيته

«ليسيس تراتا» أن نساء المتقاتلين الإغريق فرضنَ إيقاف تلك الحرب الطويلة بإضرابهنّ عن ممارسة الجنس مع أزواجهنّ وعشاقهنّ.

هنا قد يقول بعضهم: إن تلك ميثولوجيا يونانية مغرقة في القدم، وربما لم يكن تصرف النساء الإغريقيات على ذاك النحو إلا من صنع الخيال، وأوهام من ترجم ونقل، غير أنّ التاريخ الحديث يؤكد، بما لا يقبل الشك، ويثبت صحة الفكرة، وواقعية الحدث.

لقد حصل، في القرن الحادي والعشرين، خمسة إضرابات شهيرة قامت بها النساء بالامتناع عن ممارسة الجنس لإيقاف معارك وحروب وصراعات دارت في بلدانهنّ.

– في الحرب الأهلية الليبيرية الثانية في 2003، شكلت نساء ليبيريا كتلة العمل من أجل السلام، بزعامة «كريستال روه غاودينغ»، حركة عملت على إنهاء الحرب الأهلية الليبيرية الثانية، وأجبرت نساء ليبيريا الرئيس تشارلز تايلور على لقائهنّ، حيث انتزعنَ منه وعداً بحضور محادثات السلام في غانا للتفاوض مع المتمردين من الاتحاد الليبيري من أجل المصالحة؛ فقد توجّه وفد من نساء ليبيريا إلى غانا لمواصلة الضغط على الفصائل المتحاربة أثناء عملية السلام، وكانت أعمالهنّ سبباً في الاتفاق خلال محادثات السلام المتوقفة، نتيجةً لذلك، وأصبحت النساء قادرات على تحقيق السلام في ليبيريا بعد حرب أهلية استمرت أربعة عشر عاماً، كما ساعدن –بعدها– على تنصيب امرأة أول رئيسة للبلاد.

بدأت هذه الحركة بالظهور الإعلامي، واستحوذت على الاهتمام والحضور، بعد أن قامت النساء الليبيريات بالإضراب عن ممارسة الجنس.

– وفي حرب العصابات في كولومبيا 2006، نفذت نساء منطقة «بيريرا» إضراباً امتنعت فيه زوجات وصديقات زعماء المافيا في كولومبيا عن ممارسة الجنس؛ ما وضع حداً لصراعهم الدامي الذي أزهق أرواح كثير من شبابها، كما انخفضت –حينئذٍ– نسبة الجريمة في شوارع كولومبيا كلها بنسبة 25.5 % خلال أسابيع.

– وفي عام 2011، أنهت نساء بلدة «دادو» أربعة عقود من الحرب الأهلية الطاحنة على جزيرة «ميندناو» في الفلبين، حين قرّرنَ الإضراب عن ممارسة الجنس مع أزواجهنّ؛ حتى توقفت أعمال العنف على الجزيرة.

– أما في أمريكا 2012، فقد تعرض أمر الوصاية، المتعلّق بإدخال وسائل منع الحمل في التأمين الصحي، إلى هجوم حاد من الشعب الأمريكي؛ ما دفع النساء الليبراليات إلى إعلان إضراب عن ممارسة الجنس امتدّ من 28 نيسان/ أبريل حتى 5 أيار/ مايو، وكان للمحافظين دور كبير في قيادة الهجوم على هذه الوصاية، إلا أن الوصاية تم إقرارها في النهاية، وانهزم المحافظون.

– وجاء إضراب نساء كولومبيا الثاني عام 2013، وامتناعهنّ عن ممارسة الجنس؛ فحمل الحلَّ لمشكلة شوارع مدينة «برباكواس» الكولومبية.

– كما لم تؤثر العقوبات السياسية والاقتصادية كثيراً في موسكو بعد سيطرتها على معظم جزيرة القرم 2014، فاختارت مجموعة من النساء الأوكرانيات وسيلة أخرى للضغط على الرجال الروس، ألا وهي الإضراب عن ممارسة الجنس معهم، ذلك بهدف لفت الانتباه إلى مجريات الأحداث في القرم، والحد من مطامع موسكو في الأراضي

الأوكرانية، وقد أطلقنَ حملة واسعة رفعنَ فيها شعار «لا تسلمي نفسك للروس». أتى هذا الشعار مقتبساً من قصيدة «كاتيرينا»، لشاعر أوكرانيا الكبير (تاراس تشيفتشنكو)، وقد شاركت في ذاك الإضراب وحركة الاحتجاج تلك سيدات أوكرانيات من أصل روسي، وقد أطاحت تلك الحملة، في شباط/ فبراير، بالرئيس «فيكتور يانوكوفيتش» الموالي لروسيا، وكانت صاحبات تلك المبادرة نساء ناجحات من سيدات أعمال وصحفيات وكاتبات.

انطلاقاً من هذه الحيثيات الواقعية والآثار التاريخية، هل يمكن أن يُنجِز سلاح الأنوثة اللطيف ما لم تنجزه الطائرات والمدافع والرصاص، أو طاولات الحوار المستديرة والمربعة والمستطيلة، أو المجالس والهيئات والمؤتمرات، والدولارات.

ربما على الشعب السوري أن يصرخ، مناشداً نساء دول الأرض، وأصدقاء سورية، وأزواج وخليلات أوباما وكيري وبوتن ولافروف ودي مستورا وهولاند وميركل وكلنتون وخامنئي والأسديين الشبيحة، وأخلّاء لبوات الأسد، وأسماء الأخرس، وبثينة شعبان، وأزواج الممانعين والزينبيين والفاطميين والفلسطينيين الجبريليين والقوميين السوريين الاجتماعيين والأوجلانيين واليسار المتخيمن...، أن يا نساء الأرض اهجرْنَ في الفراش الفحول المخصيين الذين ذبحوا أطفالنا، وشردوا نساءنا، ودمروا بيوتنا، واعتقلوا شبابنا؛ لعلّ في أنوثتكنّ بعض الحياة.

# الظلّ الأحمر

**بيروت، 8 أيلول/ سبتمبر** 2017

«تَشَاهد يا ابني».

لم تكن في عجلة من أمرها ذاك النهار، أكملت معراجها ببطء، وتوقفت تستريح استعداداً للهبوط، فأطالت مكوثها أكثر من المعتاد. تكاسلاً، بعد سباتها شتاء طويلاً، تعباً، أو ربما كي تشهد الشمس أن الرصاص الحي أعدلُ من أن يميّز بين السوريين. تُهمة البحث عن الحياة، مسعورة، تجوب شوارع دمشق الفارغة، إلا من الريح، تقلّبها كرغيف خبز ساخن، تنقّب بلاط أرصفتها المهجورة، تنكش عن فريسة ضلّت طريقاً ازداد اتساعاً وقِصراً عن ذي قبل. المضيّ عبرها والخطو عليها بلا مبرر مقنع وحجّة لا تقبل النقض ليس واجباً أو ضرورة أو حتى حماقة، وليس انتحاراً أبداً... إنها مجرّد الرغبة الجامحة في التطهّر المطلق، تيمماً أو وُضوءاً، صراخاً.. أو موتاً.

«تَشاهَد يا ابني».

كمطر مكمور بغيمة وانفلت، تقاطرت القلوب والأرواح والعقول

والحناجر، أغرقت فضاء دمشق الفسيح الذي كان خاوياً مهجوراً قبل برهة؛ فامتلأ بالأنفاس.

كيف تجاوزت جميع هذه الإرادات ذاك الفراغ الموحش والصمت كله، كيف عبرت اصفرار الرصيف وسواد الطريق وعزلته وأشباحه وصولاً إلى هنا؟! كانت الإجابة أبهى من هذا السؤال.. فأسقطته.

بدأ ينتظم النبض، ويتسق خفقان القلوب، نبتت للأرواح أجنحة، وتكوّرت العقول وارتصفت في حبّة بَرَد بيضاء مثالية التبلور، التفّت الحناجر كزوبعة إعصار عاتٍ مزّق صفيح الخوف، فانطلق الصوت عظيماً نحو تلك الشمس.. وتصدّع الصمت: واحد واحد واحد... مادَ العرشُ.

«تشَاهدْ يا ابني».

مسامير حارّة انطلقت تحاول تثبيت قوائم المُلك الذي اختل، تساقطت حبات التوت لتصبغ كل المدينة بالأرجواني والأسود. غير أن اختلاله استمر ثم ... هوى، فاستقرّ أخيراً: عرش قشّ يطفو على سطح بركة دم.

الشمس تحاول جاهدةً تفصيل ظلّ الفتى على الرصيف الضيق، لكن الظل امتدّ، وانسكب خارج حدود الجسد باسترخاء وهدوء، وكأنه يستريح... كان ظله أحمر.

«تشاهد يا ابني»..

ابتسم الفتى، ونظر في عين الشمس، ثم رفع الظلُّ الأحمر يده على مهل حتى استقرت خلف عنق الشيخ الجليل، وهمس: «أنا مسيحي، يا شيخ».

## الجحش والباص الأخضر

**بيروت، 19 آب/ أغسطس** 2017

من هو الجحش الذي رتّب حروف الأبجدية على هذا النحو؟!

مدوياً انفجر سؤاله كاللغم داخل الباص الأخضر، فأجفل معظم الذين سرقهم نُعاس التعب والإرهاق والهم، لحظات وأدركنا مصدر الانفجار؛ إذ أطلق الرجل بعد صمتٍ قصير قهقهة شديدة القهر أنهاها متهادية قائلاً: جحش جحش والله جحش.

بضع ابتسامات صريحة، وبعض التمتمات المكبوتة المستغربة الممزوجة بالتثاؤبات.

عيناي معلّقتان على الرجل صاحب السؤال اللغم، وعيناه تمسحان العبارة المخطوطة باللون الأحمر على الكتلة الإسمنتية التي قسّمت طريق المرور إلى محاور، ينقّل نظراته فوق حروفها بسرعة، حتى تظن أنّه محاها برمشيه الخافقين كجناحي عصفور، فلم يبقَ منها إلا نصفها باهتاً (... أو نحرق البلد).

جاري في المقعد المحاذي، المستيقظ تواً إثر الانفجار، مطّ عنقه

نحوي موجّهاً سؤاله إلي بهدوء الشاكي، وبصوت استعاره من ديك هرم مبحوح: «ليش نحنا ملاقين ناكل؟ أعمي!؟». ثم تابع نومه.

بينما كنت أحاول الربط بين السؤال اللغم والسؤال الشاكي، كانت الحافلة قد خرجت من حيّ القصاع. بدأتُ البحث عن علاقة ما بين ترتيب الحروف الأبجدية على ذاك النحو، وبين الجحش، والجوع أو الطعام أو الفقر، الحاجة، العوز.

قبل وصول الحافلة حاجز شارع بغداد بقليل، بدأ الرجل اللغم ينوس يميناً ويساراً، وأخذت حركته تزداد شدة وسرعة، كلما اقتربنا من الحاجز أكثر، ثم فجأة مع توقفها تماماً، أطلق عنيناً صاخباً أجشّ أشبه بصوت ناعورة عتيقة حرّكتها مياه نهر عاد إلى الحياة بعد دهرٍ من الموت، ثم ضرب نفسه براحة كفّه القوية على رقبته، وصاح: «من هو الجحش الذي يملك الحقيقة؟! كل الأجوبة القطعية خاطئة، جحش ابن جحش».

جاء استنفار وارتباك ركاب الحافلة هذه المرة مختلفاً، كان أثره مضاعفاً، في جوهره إحساس بالرعب، فُرّغ ظاهرياً على شكل ضحكات لا مبالية، واستهجانات غبية، وأنصاف كلمات، وعبارات مبتورة بلا معنى، عبّر عنها بوضوح جاري، الرجل الشاكي؛ حيث انتفض من غفوته كالملدوغ، وقذف في وجهي عدة كلماتٍ مبعثرة، وأحرفٍ مبللة مشوهة: «غير منّا الواحد من الله شو بدو الستر؟ أ عمي؟!»، ناظراً إلي باستجداء، وكأنه يتوسّلني أن أنظم كلماته المترامية في جملة مفيدة.

إيماءة من رأس المقاتل، عادت الحافلة تدبّ ببطء، على عكس أنفاسنا اللاهثة المتسارعة لكسب أكبر جرعة هواء بعد فترة الاختناق تلك.

سلوك الرجل اللغم، حركاته الغريبة، لوثته وكلماته المجنونة، وربما بنيته القوية، تركت مسافة كبيرة بينه وبين ركاب الباص، حالت دون احتكاك أحد به، انتقاداً أو تذمراً أو اعتراضاً، فاكتفى البعض بنظرة خاطفة حيادية تماماً نحوه.

اتقد فضولي حد المغامرة، هممت بالنهوض من مقعدي قاصداً الرجل الذي عاد إلى نوسانه البطيء، وحشرجاته الغريبة، وحركاته الموتورة، عندها شعرت بوزن ثقيل يجرني إلى الخلف.

«بلالك اياها لك عمي، ليش ملاقين ناكل نحنا!؟». يد الرجل الشاكي التي أمسكت طرف ثوبي لم تكن أقوى من نظراته الراجية المتوسلة، وصوته الناصح الجبان المستكين.

تابعت متجاهلاً رجاءه، عندما جلست بمحاذاة اللغم كان ينظر من النافذة وكأنه ينتظر لُقية. بدأت حركاته تتسارع وجسده يضطرب، وراحت حنجرته العريضة تخور وكأنه يستعد للزئير، أتت الذروة عند توقفنا على حاجز شارع بغداد الثاني، حيث ضرب رقبته براحة كفه القوية، مزمجراً صارخاً بصوته الجهوري: «من هو الجحش الذي دسّ السمّ بالعسل؟! جحش جحش جحش».

الجحش الأولى ثم الثانية، لتأتي الجحش الثالثة مع الخطوة الصاعدة الأخيرة للمقاتل الذي أصبح داخل الباص الأخضر: «شو ما تقول يا حبيب؟!» وتقدم باتجاهنا.

تلك اللحظات القصيرة حتى وصوله إلينا، كانت كفيلةً برسم الكثير من سيناريوهات أفلام الرعب.

ساد صمت قاتل.

على مهل وبثقة، دسّ الرجل اللغم يده في الجيب الداخلية لردائه

الشتوي الطويل، ما فتح أذهان الركاب على احتمالات وعواقب أكثر بشاعة، لكنه آخِراً أخرج بطاقته الشخصية ورفعها: «قلت الفخّار لا يكسّر بعضه بعضاً إلا إذا جاء واحد جحش وكسّره، جحش نعم جحش، وهازه هويتي».

ضحكات الركاب المبالغ فيها كانت في حقيقتها نحيب.

آثر المقاتل أخذ كلام الرجل على محمل الجنون، ربّما كان ليحمل عبئاً ثقيلاً لو اختلف خياره: «بالله معك حق، طلاع يا غالي».

أغلق الباب على المذعورين، تابع الباص الأخضر مسيره.

حاول السائق أن يطرح سؤاله بودّ عبر مرآته المتوسطة العريضة: «وين رايح عمي، مطول لتنزل؟». بصوت كالرعد جاء رد الرجل اللغم سريعاً غريباً على غير المتوقع: «رايح عا سوريا، مطول لتوصل؟!».

انتفض الرجل الشاكي مذعوراً، وأخذ يموء كالقطة، وكأن حروفه خرجت من مؤخرته لا من فمه: «شو هالمهزلة هي يه! ليش نحنا ملاقين ناكل عمي؟!!، يستر على عرضك! شو هالمهزلة هي يه؟!».

قهقه الرجل اللغم طويلاً، ثم أخذ يصرخ: «مهزلة. نعم مهزلة، التاريخ يبدأ بمهزلة، وينتهي بمأساة».

«كارل ماركس». همست بصوت خفيض، خلت أنه كذلك، لكنه سمعني، فانفجر اللغم في وجهي هذه المرة: «كاااارل مااااركس، أحسنت». نهض وتوسّط الحافلة، استدار، نظر في عيني مباشرة، ووجه سبابته نحوي كالنبل: «أين بدأت المهزلة؟». لم أستطع النطق، توجه نحو راكب آخر: «أين بدأت المهزلة؟». صمت، «طيب، كيف بدأت المهزلة؟». صمت، «طيب، المأساة؟ أين المأساة؟». لم يحصل على أي إجابة.

هدر الرجل اللغم، انتفخت أوداجه، احمرّ جلد وجهه، وضرب بكلتا كفيه القويتين على صدره هذه المرة:

«المهزلة أن يتغير دستور بلد عمره خمسة آلاف عام في خمس دقائق، والمأساة هي نحن، نعم نعم نحن الحطب، بدأ التاريخ وسينتهي في هذا الباص الأخضر».

قفز الرجل الشاكي من مقعده كالأرنب، وأخذ يسبح نحو الباب، وهو يصيح: «من هو الجحش الذي سيبقى جالساً معك في هذا الباص؟! جحش جحش سيكون جحشاً».

## دِماءُ، نا- دُمىَ، نا

**دمشق، 30 حزيران/ يونيو 2017**

اغسل دِماءكَ عن دُماك، فغداً لن تكون غير أنت

الزاوية البعيدة المعتمة منك تماماً هي تلك. أمعن التأمّل في ليلها جيداً، إنّ فيها دُماك.

الدُمية العمياء العتيقة الممزّقة، المحشوّة بالقشّ، المرمية على نبضك، التي تنظر إليك الآن، نعم، تلك الدميمة، كلَّ ليلٍ تشي لروحك بما تبقّى منك، وما بقيَ فيك. تناكف آنكَ، كي تنفضَ الغبار عن ماضيك، تقلّبه، تمزّق تقويمه، تخلط أرقامه بأبجديته، تراقص الرماح في جوفك، وترميك فيك، إنها شهقتك، مذ تَقنطر جدّك الأول عن صهوة جواده ومات إلى يوم هُزمت. اغسل دِماءك عنها واحتضنها، لن ترحل عنك أبداً، ولا تعلن عليها الحربَ... فعندها لن ترحمك.

تلك، جاحظة العينين السوداوين، القَزَمة، ذات الشعر الطويل كنهر، الجالسة على مِنبر قلبك، تَراها؟ كيف تنوس بساقيها القصيرتين السمينتين المعلقتين في ظُلمة أحلامك، تركل شغافك، انظر إليها، تفترش قهر سنيّ عمرك، وتلعق صبر أبيك عليك، وتقشّر عنك صبرك،

ليست عدواً وليست صديقاً لك، وليست لغيرك. إنها جهاتك الأربع، ونجوم ليل صحرائك، وريح بحرك وشراع بحثك، إنها سمتك، اتجاهك وخَطوك، فاغسل دماك عنها واحتضنها، واحتملها، تماماً هكذا، كي لا تَضيع أو تُضيع دربك.

انظر... وأنصتْ إليها، الدمية فاغرة الفم الكبير، التي تقهقه بصمت، تلك النحيلة الفارعة صاحبة الحدبة، ذات الأصابع الطويلة المتقصفة كقصب السكّر العَطِش، سألت نفسك مرةً، لِمَ تنهز كبدك؟! لِمَ تضحك حتى تكاد تتفكك مفاصلها وتنفلت من مرابطها، كلما ارتجف بدنك، هلّا سألت؟! أتجازف في وحدة جسدها الهش كي تسخر منك وتضحك عليك فحسب؟! هكذا ظننت؟ تغفو فجأة لحظة صحوك، ثم تنهض من غفلتها ببطء، على مهل، كمحظية ملك مخمورة، ثم تنشط في طعن عقلك، تنكأ جراح سرّك كلما غفوت، لماذا تَبرُد أظفارها في مِحجر عينيك يا ترى؟ هلّا أجبت؟ لا تخف، لا عليك، تلك البكماء هي ارتيابك وارتباكاتك، ومخدع رغبتك، وحبل غسيل رؤاك، ومبتغاك الصعب، إنها سؤالك وجوابك، اغسل دماءك عنها واحتضنها، ولا تقلق منها أو عليها، فهي لك.

انظر بحدسك، اتبع ضوء عقلك، ثق في خطوك نحوها حتى تصلها، أيضاً، وخطوة أخرى، نعم، لقد اقتربت، إنك تقف أمامها الآن، لا، لا تحاول، هذه الدمية لن تراها بعينك، ولو انتزعت كامل جلد وجهك ليس جفنيك فقط، اهدأ وابدأ... تشعر بحرّها أم بدفئها؟ ببردها أم صقيعها؟ هل يؤلمك صمتها؟ لعل صوتها الخارق قد أزعجك، ها قد تشتت حدسك وضاع! إذاً أعد المحاولة من جديد، لا تحدد شعورك نحوها مسبقاً، ولا توجّه رأيك فيها سلفاً، إن فعلت فشلت في التقاط

أثيرها، اهدأ، رشّد شعورك بالذهول، قنّن أحاسيس الغرابة عندك، لا تتعجل الدهشة يا شقي، إلى أن تعرف أنك، أنت الذي صنعتها.

انهض.. لا وقت لديك للبكاء.

حطم قيود عقلك، إذا ظننت أنه يستحق، احفر بأسنانك كوة في جدار سجنك، واقضم حصاه، إذا آمنت بأن نفسك تستحق، باعد ما بين ضلوع صدرك، كي يَفرّ قلبك، إذا شعرت أنه يستحق هذي الدمية الأثيرة. قوسك ونبلك هما شِباك صيدك الخفيفة الرشيقة المتينة الحاضرة؛ إذا رغبت أنت، فحرر مراكب بحرك، واغسل دماءك عنها واحتضنها، إنها في خدمتك.

هي دُماك، افتحْ لها النوافذ شرّع لها الأبواب، إنها فيك ولك، جدد دمِاك، فإن تغير كل الكون من حولك، كل الكون إن تغير، فلن تكون إلا أنت.

## يا لـ «ثارات البوكيمون»

**دمشق، 17 حزيران/ يونيو 2017**

الياباني لقم «الأنِمي»، والأمريكي أطلق «البوكيمون جو».

هكذا تجلّت المؤامرة «البوكيمونية» الكونيّة على عالمنا العربي، وتنكّرت في لبوس الربيع. فبين الشرق «الشنتاوي» الملحد، والغرب «الميكافيلي» الكافر، وقعت «خير أمّة أُخرجت للناس» بين فكّي... «البوكيمون».

ـ أسّ «البوكيمونية» وبعدها الميتافيزيقي:

ولد «البوكيمون»، فكانت نشأته الأولى في اليابان على يدي عدو الله «ساتوشي تاجيري»، وجاء متخفياً على شكل لعبة فيديو «أنيميشن»، مستغلاً، ذاك «الشنتاوي» الحقير، انشغالَ «خير أمة أخرجت للناس» في أبحاثها المعمّقة لإثبات أهمية بول البعير، وتقديم البراهين القاطعة على مقدرة خصية الديك البلدي اليسرى، وفاعليتها في الخصوبة والإنجاب، وفي تبييض السجون والمعتقلات والفروع الأمنية -أيضاً- تمهيداً لاستقبال نزلاء جدد (على نظافة).

قدّم قسم رسوم الأطفال التابع لشركة (نينتندو) «البوكيمون» الياباني

إلى العالم، بعدة لغات في 1995؛ لتبدأ بعدها الفقرة الثانية والأخطر في فصول المؤامرة «البوكيمونية» الكونية، حيث أصدرت شركة (نينتندو) لعبتها «البوكيمون» في نسختها الأمريكية الخاصة الأولى، وذلك في الولايات الأمريكية 1997، وسرعان ما انداح «البوكيمون» وغزا العالم كالفايروس المعدي الذي ينتقل عبر الهواء.

لكن ثمة مفارقات غريبة في تلك المؤامرة «البوكيمونية» لا بدّ من التوقف عندها.

تكمن الغرابة في أن العروض الأولى «للبوكيمون» عربياً كانت على أثير القناة الثانية في التلفزيون المصري، وقناة MBC السعودية عام 2000، ومن ثمّ عُرِض على تلفزيون قطر في عام 2001 بجزأيه الأول والثاني، وتكفل بنقله إلى لغة الضاد صوتياً (دوبلاج) مركز أو شركة الزُهرة السورية؛ وتابعت المهمة، بعد أن توقفت شركة الزهرة عن دبلجته، شركة (سوبر إم) اللبنانية للإنتاج.

في المقابل أُطلِق العديد من الفتاوى الشرعية لتحريم مزاولة «البوكيمونية». والأغرب أن مصدرها؛ أي الفتاوى، هو الدول نفسها التي أطلقت عروضه الأولى.

الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء (دار الإفتاء السعودية) جددت فتوى عمرها 15 عاماً تفيد بأن الـ «بوكيمونية» مخالفة للشريعة الإسلامية، وأشارت الفتوى إلى أن التحولات التي تطرأ على الكائنات «البوكيمونية» تعطيها قوة خاصة تصل إلى مستوى الكفر عن طريق الترويج لنظرية النشوء والارتقاء، وجاء في متن الفتوى جملة طريفة: «العجيب أن كلمة (تطوّر) أصبحت كثيرة التردد على ألسنة الأطفال».

أفتى الدكتور نصر فريد واصل، مفتي الديار المصرية، 2011، بتحريم «البوكيمونية» التي يتم تداولها بين شباب العالم العربي والإسلامي، وقد أرجع فتواه إلى أنها تشكل خطراً كبيراً على عقيدة الشباب المسلم، لتبنيها فكرة الداروينية.

كما انتقد الشيخ عباس شومان، وكيل الأزهر، «البوكيمونية» بشدة، وقال إنها مضرّة بحياة البشر؛ حيث تجعلهم يسيرون كالسّكارى في الشوارع يبحثون عن «البوكيمون» في المحلات التجارية، وأقسام الشرطة، والمصالح الحكومية، وبيوت الناس، وربما دور العبادة.

وصرّح الشيخ الأستاذ محمد الشحات الجندي، عضو مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر: إنّ من شأن «البوكيمونية» التقصير في الواجبات الدينية فهي حرام شرعاً.

وقد أصدر الشيخ يوسف القرضاوي فتوى حرّم بموجبها «البوكيمونية»، وقال: إن الفتوى تأتي «حفاظاً على عقول أبنائنا وعقائدهم وسلوكهم وعلى أموالهم»، وأوضح الشيخ القرضاوي أن فتواه بتحريم «البوكيمون» استندت إلى آراء أهل الخبرة والفكر الذين يعرفون قضايا الفن والدراما والمسلسلات ونحوها من المؤمنين الملتزمين. وحدد الشيخ القرضاوي أسباباً قادته إلى تحريم «البوكيمونية» تتمثل في أنها تتضمن خطراً على العقيدة بتبنيها نظرية النشوء والارتقاء، كما أنها تشكل خطراً على عقلية الطفل وحسن تربيته فكرياً، حيث يُغرس في عقله خيالات لا أصل لها، وأشياء خارقة للعادة وغير متماشية مع سنن الله الكونية؛ إذ تصدر من هذه الحشرات أو المخلوقات الجديدة «البوكيمونات» عجائب وغرائب لا أساس لها من عقل ولا نقل. كما أنها تتضمن رموزاً دلالاتها

معروفة، مثل النجمة السداسية وعلاقتها بالصهيونية والماسونية. واستندت فتواه إلى اشتمال «البوكيمونية» على الميسر المحرّم شرعاً، وأنها تدعو إلى العراك الدائم والعنف المستمر والقتال الذي تدور رحاه بين هذه المخلوقات.

ولم تكن فتاوى تحريم «البوكيمون» حكراً على المؤسسات والشخصيات الدينية؛ بل تجاوزتها إلى الكيانات المدنية والحقوقية والسياسية، لتشارك في معركة الصمود والتصدي.

شنّ البرلمان المصري هجوماً حاداً على «البوكيمون»، وحذّر من أنها تمثل تهديداً صارخاً للأمن القومي للبلاد! وعلق السيد حسام القاويش، المتحدث باسم مجلس الوزراء المصري، محذراً منها؛ وذلك لاعتمادها الخلط بين الواقع والخيال، حيث يطلب من الشخص مطاردة مخلوقات «البوكيمون» باستخدام كاميرا الهاتف، عبر تحديد مواقعها بين الأماكن العامة والخاصة التي توجد فيها.

حذرت المنظمة المتحدة الوطنية لحقوق الإنسان، برئاسة المستشار محمد عبد النعيم، الشعبَ العربي من «البوكيمونية»!، وأوضحت المنظمة، في بيان صحفي صادر عنها، أن «البوكيمونية» تتطلب الاتصال بالإنترنت وبالشبكات الأمريكية، وقالت المنظمة: إن الكارثة الحقيقية تتمثل في تجنيد الشباب العربي لتصوير الشوارع والمنشآت الحكومية المهمة، ونقل الصورة على الهواء مباشرة إلى أخطر أجهزة أمنية عالمية وعلى مدار الساعة دون أن يعلم؛ وعليه، طالبت المنظمة المتحدة الوطنية لحقوق الإنسان الأجهزة الأمنية بحظر «البوكيمونية»؛ لأنها إحدى وسائل حروب الجيل الرابع، وحتى لا يقع شبابنا فريسة لأطماع أجهزة الاستخبارات الخارجية. ودعت

المنظمة منظماتِ المجتمع المدني كافة إلى إطلاق حملات توعية للشباب العربي بخطر «البوكيمونية».

**نعم!!**

لقد حرّموا «البوكيمون» وأحلّوا دماءنا، وأرواح أطفالنا، اتفقوا على «البوكيمون»، واختلفوا على إنسانيتنا. فيا لـ «ثارات البوكيمون».

## الحقيقة الثالثة في «بروميثيوس المقيّد»

**دمشق، 5 حزيران/ يونيو 2017**

صُلِبَ «بروميثيوس» على الجلمود.

بينما جوقة بنات «أوقيانوس» يغنين تراتيلهن الحزينة، ويندبن مصيره البائس، شرع «إيفايستوس» مرغماً متألماً في تنفيذ أوامر أبيه الطاغوت «زيوس»، كانت مهمته التي يكره تأديبَ الشقيّ الذي أهدى النار للإنسان.

بين شهادة بنات «أوقيانوس» وصمتهن على جريمة صلبه، وتنفيذ «إيفايستوس» الحكمَ الظالم، على الرغم من قناعته المطلقة بجوره وعدم مشروعيته، كان الأصعب على روح «بروميثيوس» المكلومة ونفسه المعذّبة لا مبالاة البشر الذين أخذوا تعاليمه المبدعة، ووظّفوا هديّته الثمينة في استمرار حياتهم وتطورها وازدهارها، متجاوزين آلامه بلا اعتراض، متعامين عمّا آلت إليه حاله.

سقط «بروميثيوس» في الديجور.

كان الطاغية «زيوس» قد استغلّ خلاف الجبابرة الأوّلين، بين مؤيّد للإله الحاكم «كرونوس» ومعترض عليه، فخاض معركة السلطة

والحكم، وقضى على من اعترضه أو عارضه، واغتصب عرش أبيه «كرونوس». أصبح «زيوس» صاحب سلطة مطلقة ترتعد من هول اسمه جميع الآلهة، وأنصافها، وبالتأكيد البشر.

بينما كانت ثاني نواياه -بعد أن خلص الحكم له- إبادة البشر بغية استبدال عرق جديد بهم، الأمر الذي عارضه «بروميثيوس»؛ حيث آمن بأن ثمة مساحات تتسع لجميع المخلوقات؛ إنه حق الحياة كما يرى.

يروي «إيشيل» الإغريقي حقائق توارت عميقاً بين سطور قصيدته العظيمة، أو بالأحرى أوردها خلسة، ورماها على عجل، بين ثنايا الأحداث المرعبة، وكمّ التفاصيل الهائلة الغزيرة لمأساة «بروميثيوس» المقيّد. باح بها أفكاراً هيفاء رشيقة، لا أحداثاً ثقيلة، أو أفعالاً واضحة جليّة.

الحقيقة الأولى أن «بروميثيوس» قد أجّل مصيره ذاك فحسب، وذلك عندما هادن طغيان زيوس وماشاه قبلاً، بعد فشله في إقناع المتصارعين الجبابرة بالإصغاء إلى نصحه، فوقعوا في المحذور، حيث مزّقتهم الاختلافات والخلافات؛ ضعفوا، وتشتّت قوتهم، فذهبت ريحهم. كان «زيوس» الطَموح، الشغوف بالسلطة، النَهِمُ للحكم والسيطرة، ينتظر اللحظة بصبر الصيّاد. هكذا كان الانقضاض والحسم، ولم يتردد أبداً.

اتقى «بروميثيوس» الطاغية. خاف من جبروت «زيوس» وبطشه. ارتعب من أن يرمي به في الديجور، كما فعل بجميع الجبابرة القدماء، فآثر الوقوف في صفّه ومحاباته، بعد أن اتضحت له نهاية الصراع ونتائجه.

الحقيقة الثانية أن غضب «زيوس» الأعظم على «بروميثيوس» كان،

في ظاهره، بسبب تقديمه النار هديّة للبشر؛ لأن «زيوس» بمقدراته اللامحدودة من قوة وحنكة وجبروت وطغيان كان بإمكانه -قطعاً- استعادة تلك الهبة ومنعها عن البشر، لكن غضبه العميق وحقده الحاد عليه يكمنان في مفصل آخر. يقول «إيشيل» في قصيدته على لسان «بروميثيوس»، مجيباً بنات «أوقيانوس» عن سؤالهن عن سبب صلبه وتعذيبه بتلك الطريقة الوحشيّة: إنه أعطى الإنسان الأمل بالحياة المستمرة المتجددة، الأمل، هذا الشعور الذي أدرك الطاغية «زيوس» أنه لا يمكن منعه، أو قمعه، أو قتله.

الحقيقة الثالثة أن الأسطورة، على الرغم من بنائها ومحتواها وغاياتها، كونها إرث الخيال، ولا طريقة ممكنة للتوثّق من أحداثها، أو التأكّد من صحتها، تحمل في متنها وطيّاتها حقائق حياتية واقعية غاية في الدقّة، فـ«بروميثيوس» لم يبقَ حبيس الديجور إلى الأزل؛ إذ خلّصه «هرقل» العظيم، وأخرجه منه ولو بعد أبد، كما أن «زيوس» الطاغية الحاكم المتجبّر اندثر وانكسر جبروته وزال إلى الأبد.

## شبرُ دم

**إلى سعد الله ونوس**

**دمشق، 15 أيار/ مايو 2017**

اليوم الأول بعد الألف السابعة

ـ المعصوم

كعصا موسى تشقّ البحر، شقّ جمعَ الفيلةِ المبهورين بخطوه الخفيف، ورشاقة قدّه، وطلاوة جلده، وظرافة وجده، ثم اعتلا المنبر المسروق، المرصّع بالأسرار والحكايات العتيقة. تهامسوا: إنه يشبه المعصومين إلى حدّ كبير، أدركت الفيلةُ ذلك فور سماعها باسمه، ثم أصرّ بعضها على أنه معصوم فعلاً، بعد أن رأوه.

اليوم الثاني بعد الألف السابعة.

ـ تنزيل

جاب الطبّالون ورهط من وجاهات الفيلة أزقّة الأرض، يُنزلون الحقائق الجديدة على قاطنيها، قالوا: هابيل لم يُقتل بيد أخيه قطعياً؛ بل

قتلته الموساد الإسرائيلي. وإن جدّنا «حمورابي» صاحب أول دستور بشري، كان أهبلَ و«ترللّي»، لاط فيه أولاد الحارة. وإن «أوديب» استمرأ والدته، وانسمال عينيه كان بسبب انفجار بابور الكاز في وجهه أثناء طبخه «الجزمز» لـ «الطيرة» أمّه. وإن «أليسار» ابنة صور اللبنانية، التي بنت مملكة قرطاج، ليست سوى «عاهرة» هربت مع شاب غني اسمه «أشرباص» إلى تونس. وإن المقلاع، الذي استخدمه الكنعانيون الفلسطينيون في انتفاضة الـ 87، كان من تصميم ملك الزمان، وما الخِرقة التي يلقيها النبي سليمان بن داود على كتفه إلا «كولون» أخته الصغرى، لكنه قُرئ عبر صور القمر الصناعي التركي خطأً على أنه مقلاع. وإن قصة فارس الخوري المسيحي الذي توزّر الأوقاف شطحة خيالية روائية، إنها «خوري بان»، الجزء الثاني من قصة «بيتر بان»، مُنعت رقابياً من النشر لسوء التنضيد. وإن العَلَمَ الذي رفعه الشيخ صالح طرابيه على مبنى الداخلية في ساحة المرجة، بعد طردهم العثمانيين منها ودخولهم دمشق، هو علم الاستعمار الفرنسي، غير أن الثوار الميامين «شرشطوا» عليه «بوظة» بكداش، فتغيرت ألوانه. وإن سليمان العيسى هو شاعر الأطفال الوحيد والفريد على وجه البسيطة. وإن الأشلاء البشرية في دوّار ساحة الساعة في حمص، ما هي إلا مجسّمات هندسيّة «ماكيتات».

اليوم الثالث بعد الألف السابعة

ــ هلع

أحدث التنزيل الجديد خللاً في البرمجة اللغوية العصبية لقاطني الأرض! ضمور في الأعضاء التناسلية لحمير الوحش، ضمائر مُربكة وإيقاعات أكثر إرباكاً لضاربي الطبول، اختلاجات حسّية، تناقضات

سلوكية، تضارب مفاهيم، قلق وجودي، تحشيش علني، نزف معرفي، اختلاطات أخلاقيّة، مسابقات نَصب واحتيال، استمناءات سياسية، تقيؤات عسكرية، تخوين، حرب، نهب، سلب، تعفيش، تهريب، معتقلات، اختطافات، جوع، نزوح، مخيمات، جرائم ضد الانسانية، تطرف ديني، تهافت فلسفي، انتصارات وهميّة، أوهام ارتدادية، «تسونامي» دولي خيري.

اليوم الرابع بعد الألف السابعة.

ـ انتفاضة كبش

توقّدت حماسة كبشٍ عتيق هارب من العصر العباسي، عزّ عليه ما آلت إليه الحال؛ فأخذ يستنهض الهمم، ويذكي نار القيم، ويَرتُق ما هشّ وتمزّع من ذمم، حتى شدّ الأواصر، وجمع الأحلاف والنواصر، حاشداً البالغين والقواصر، وما لبث أن شاركه الفعل جحش طبّال مقهور على ذبول ذكورته، فأضاف إلى المشهد إيقاعات تصويرية حماسية، وعندما بلغ الكبش مبتغاه، اعتلا منبراً وخطب بقاطني الأرض: يا قوم، لنجعل يومنا هذا ليس ككل الأيام، وما كنّا أبداً ممن يقعقع لهم بالشَنان، والله ضاقت بنا الأرَضين السبع حتى غصّت، مات الزرع ونفق الضرع، وهوى الطير من علٍ بلا نبل أرداه أو رمح حاباه، وتكسّر ضلع الأم على عظم الولد، أنصبر حتى يأكل بعضنا بعضاً!!؟

هاج الجمع وماج، وهتفوا منددين مستنكرين رافضين سوء أوضاعهم، فتشاوروا وقرروا شكوى حالتهم لملك الزمان.

اليوم الخامس بعد الألف السابعة

ـ شاي مُثلّج

ما بكم متجهّمين يا أعزائي! أيها الفيل، «جيب آيس تي للشباب المشوبي». قالها ملك الزمان ببرودة الشاي المثلّج.

تشجّع الكبش، وتقدّم خطوة إلى الأمام، لكنه لاحظ بطرفة عين أن الجمع تراجع خطوة إلى الخلف، لم تخذله شجاعته وإيمانه بهم فأقدم وقال: ضاقت بنا الأرَضين السبع يا ملك الزمان. لكن الجمع تراجع خطوة ثانية إلى الخلف.

ضاقت بنا الأرَضين السبع، يا ملك الزمان.

تراجع الجمع خطوة ثالثة إلى الخلف، وبدأ بعضهم يتسرّب خارجاً من باب قريب.

ضاقت بنا الأرَضين السبع يا ملك الزمان، ألا تدلّنا على أرضٍ من بعض ما عندك، نُحشر فيها وأنت العليم الحكيم يا مولانا؟!

اليوم السادس بعد الألف السابعة.

ـ مَكرُمة

سَرَحَ الطبّالون بمعيّة الفيل يعلنون: بمكرمة من مولانا ملك الزمان والأوان، فُتحت أرض ثامنة للعباد. صحيح أنها معتمة باردة ورطبة وذات أسوار عالية، لكنها محميّة بأسلاك شائكة تصونها كلها بشكل جيد.

اليوم السابع بعد الألف السابعة

ـ مجزرة

دارت رحى الحقد، وبدأت تطحن القلوب، استيقظت أساطير الموتى، ودبّت بالقتلى غريزة القتل، فنهضت الأرواح تقطع بعضها إرباً. غطت مزق الأكفان الأرَضين الثمانية، تشبثت الأنياب والأظفار

بالحناجر. رائحة الأنفاس الأخيرة اللاهثة أكثر من رائحة الدم المراق، هتك الأخ كبد أخيه، اغتصب الثكل الأمهات، بكت الرجال.

ليل اليوم السابع بعد الألف السابعة

ـ شبر دم

القمر بدر. كان مولانا ملك الزمان يتناول عشاءه في شرفة قصره، ويتابع المجزرة كأنها فيلم سينمائي. قبل أن يبتلع لقمة ما زال يلوكها في فمه، قهقه ضاحكاً مخاطباً حارسه المنتصب على مقربة منه: انظر.. انظر أيها الفيل ذاك الأبله هل تراه؟ لا يعرف كيف يقتلع الحنجرة بشكل صحيح، «هههههه». ثم أخذ يصرخ بصوت عالٍ: ما بكم؟! تغرقون في شبر دم؟! ابتسِموا، ابتسموا، إن الله يلتقط لكم الآن صورة تذكارية «هههههه».

كان فيل ملك الزمان الحارس هو الفيل نفسه الذي حدّثني عنه سعد الله ونّوس.

## كونشيرتو «من أنتم؟»

**دمشق، 21 نيسان/ أبريل، 2017**

ما لبث أن وَضع ملك ملوك أفريقيا، الأخ، «الغايد»، «العغيد»، الفيلسوف، المؤلّف، البلياتشو، المايسترو، مَعمّر «الغذافي»، لمساته الأخيرة على السيمفوني العربية «من أنتم؟»، حتى وضِع على خازوق حار، جعل من موّاله الأخير موالاً ناشزاً، خارجاً عن المقامات المفترضة، والنوتة المكتوبة بعناية وثقة لذلك «الكونشيرتو».

لكن الباحثين «الموسيسياسيين» كشفوا -لاحقاً- أن تلك المقطوعة «الموسيسياسية» من أنتم؟ لم تكن -على الإطلاق- «كونشيرتو» أصيلاً، من تأليف وإبداع الأخ «الغايد»، على الرغم من وجود بعض «الميزورات» الإبداعية الخالصة له، ضمن السياق العام للكونشيرتو، مثل «ميزور» «شدّوا الجرذان»، فإعادة توزيعه «الموسيسياسي» لها في تلك الأوضاع الخاصة التي أحاقت به، قُبيل جلوسه الأخير على عرش فوهة الكلاشنكوف ذي الأخمص الخشبي، أضاعت مصدر اللحن الأصلي، وأشكلت على بعض المتخصصين، وكثير من السمّيعة.

أظهرت الدراسات المدعومة بالتجارب الواقعية الراهنة،

وبالشواهد التراثيّة الحيّة، إضافة إلى الشهادات والمشاهدات المباشرة بطبيعة الحال، والمواويل «الموسيسياسية» ذات الصلة، والمطبّقة على عيّنة اجتماعية عشوائية منتظمة تُعنى بالشأن العام، أن «كونشيرتو» «من أنتم؟» ما هو إلا أهزوجة «موسيسياسية» شعبية اجتماعية عربية ذات منشأ طبقي، تنحصر -بيانياً- بين مثقفي «البلوريتاريا» وأنصاف مثقفيها من جهة، ومتمثقفي البرجوازية الصغيرة وببغاواتها من جهة «أخرا»، وخاصة ذوي التوجّه الديني، أو الميول القومية، أو ملتزمي الإيديولوجيا اليسارية، والفكر الماركسي تحديداً.

إذ أظهرت العينة العشوائية المنتظمة سالفة الذكر، تحت الاختبار، أن طبقة «البلوريتاريا» الرثة، والعمال، والفلاحين، وصغار الكسبة، أسست واحتضنت «كونشيرتو» «ما حا أحسن من حا»، وتعتمد في قيادة «موسيسياسيها» على آلة الزمّيرة، ولا تكترث لمفهوم «المايسترو» بتاتاً، وذلك وفقاً للقاعدة التنظيمية الخاضعة لها في كونه «ما حا أحسن من حا».

بينما تعتمد الطبقة الوسطى على «كونشيرتو» «كل الناس خير وبركة»، ولا تؤمن بغير الربابة، بوصفها أحد أهم عناصر التعبير عن «موسيسياسيها»، وتميل هذه الطبقة إلى التوافق السلمي على مفهوم «المايسترو»، بناءً على جدلية العبء والمسؤولية من طرف، وشرعيّة الإرث وثقله من طرف آخر، والقاعدة التنظيمية التي تخضع لها المتمثلة بـ «الله يهدّي البال» من طرف ثالث.

الجدير بالذكر أن مؤدّي «كونشيرتو» «من أنتم؟» لا يؤمنون إلا بالدربكّة أو بالطبل إلهة لهم، على الرغم من شكلانيّة ترويجهم الدؤوب، ومحاولاتهم الاستعراضية توجيهَ السمّيعة الحثيث ومن

جميع الفئات وكل الطبقات نحو مقطوعات «موسيسياسية» مثل: كسّارة البندق، وبحيرة البجع، ومارش سلاف، والقدر يقرع الباب، إلا أن «كل شي لحال»! فالاستماع شيء والأداء شيء آخر! إن التداخل الطبقي في نشأة وتكوين هذه الفئة جعل القاعدة التنظيمية الخاضعة لها حول مفهوم «المايسترو» مركّبة معقدة بين المطاطة المرنة والناشفة المتصلبة، بحسب ضرورات السوق، ولكنها تتلخص في «ميزور مزدوج» مضمونه «شوفوني ما أحلاني»، وظاهره «سلفي وكل المعثرين خلفي».

تتكثف إشكالية وإعجاز «كونشيرتو» السياسية الاجتماعية العربية -السورية على وجه الدقة- في تفصيلين أساسيين، الأول القتال من أجل احتكار قيادة الفرقة «الموسيسياسية»، والحصول على صفة «المايسترو»؛ حتى لو كانت على رأس الخازوق، والثاني في أداء «كونشيرتو» «من أنتم؟» على «أنغام» قرع الطبل أو دق الدربكة. إن «ميزور» «طز مرّة ثانية بأميركا وبريطانية»، أحد مقاطع «كونشيرتو» «من أنتم؟»، الذي أعاد توزيعه الأخ «العغيد» قبل أن يرحل عن دنيانا، يجسّد أنموذجاً صارخاً لفِرق «موسيسياسية» عريضة من «القذاذيف والقذوفيّات»، قياديين وقياديّات، سياسيين وسياسيات، ناشطين وناشطات، إذا قلتَ لهم: سلاماً، قالوا: «من أنتم؟».

## احتفاليّة الطين والسكين والدم

**دمشق، 29 آذار/ مارس 2017**

أدركَت فطرته أن لا مناص من التغيير الآن.

توهّج النصلُ كضارٍ خائف استشعر الخطر.

«هاك صدري».

توتّر النصلُ وازدادت نبضات بطشه.

«إليك ظهري».

انقض النصل متعرقاً يحرث كابوساً مرعباً استيقظ أمامه تواً.

«لا تُخطئ قلبي».

استفزّ السكّينُ همس الطين للدم المسفوك بكبرياء: «هوّن عليك يا دمي، إني أستحمُّ بك فلا ترثِ لحالنا، حسبي ألا تبخل علينا بالنزف، بلّل خلاياي أكثر، دعها تلين، علّنا نُطفئ ظمأ سني القحط، لا تخف سنجفّ ما إن تشرق الشمس».

على الرغم من عشوائية الطعنات، والفوضى العارمة في توزّعها، وتقاطع الجراح على الجراح، واختلاف وادي الدم -عمقاً وعرضاً

وغزارة وحرارة- آمن الرُّقُم قيد الولادة بأن في ذاته، في غورها وبُعدها، صورة أخرى غير ما تبدو عليه للعابرين المثقلين بالخوف والهزائم أو باليأس وحده، ومن تفرّس فيها كقارئة فنجان خبيرة فحسب رآها بوضوح.

لا شكَّ يخالجه من حمله -أخيراً- في صفحته الملتهبة معنىً مختلفاً للتراب، إعمال نصال، جراح، نزف، ألم، ودمع وشمس، ثقة الطين بآلامه، أنينه المنخفض الممتزج بالرغبة والمزيد، هي سُنّة التكوين، وحال التغيّر، كما يرى. أربك السكين، جعله يصرخ بحدة: «لماذا؟»، مُعملاً النصل حتى القِراب.

«آخ، إنك داخلي، فيما صراخك؟!!»

«تعرفُ أني لا أجيد إلا هذا!» قالها النصل مُسوّغاً، في أثناء طعنه للطين، بما يشبه الاعتذار:

«آخ، أعرف، لكني مللت السكون والخَدَرَ وعدم الإحساس».

«لكنك تنزف وتتألم الآن».

«آخ، غير أني بتُّ أشعر من جديد».

«هل كان هذا يستحق؟!»

«آآخ، هل تعرف -يا صديقي السكين- آلام الدودة لحظات انسلاخها عن شرنقتها؟»

«لا، هل هي لحظات مؤلمة؟»

«آآآخ، ليس بقدر ألمها فيما لو بقيت دودةً، تنظر إلى الفَراش يطير، هذا ما أثق به»

«ليتني أستطيع فهمك». وأجهش النصل بالبكاء.

«آخ ليتك تستطيع».

«أخشى صدئي بموتك».

«آخ، لا عليك؛ الطين لا يموت».

هي ذي، جاءت جملته الأخيرة، ثلمت حدّ السكين، فذاب النصل في أحشاء الطين، وبدأ بخار حار يصعد نحو السماء.

ما عدّه السكين طعناً، مُسوِّغاً لنفسه ممارسة وظيفته التقليدية، فضّلَ الطينُ عدّه نقشاً لأبجديته الجديدة، أدرك أنّ تألّمه من طعنات شريكه في رسم اللوحة تساوى مع خوف السكين ورعبه، ومع قساوته، وشدّة تصلّبه، وجفافه، وصمته زمناً طويلاً، كان يقينه بزوال الألم والشفاء بعد حين يصبّره ربما، جعل جراحه تجفّ مفتوحةً غير مندملة، فكان لها أن شكّلت هويته الجديدة، بعد أن كان مفكّكاً مثل الدقيق، باهتاً كلون الفراغ، خفيف الوزن، سخيف المعنى، مُداساً.

فهمُ الطينِ دورَ السكّين وطبيعته أعانه على احتمال آلام المخاض حتى ولد الرُّقم.

أصبح للطين نشيدٌ جديدٌ الآن، واكتشف السكين وظيفةً أخرى غير القتل. بينما كان الدم -سيّد التغيير- قد توقف عن النزف مستمراً في الجريان، صامتاً، همّه شروق الشمس، يرقب بشغف مرور قافلة الشهداء؛ كي يصبح أخضر، فقد أدركت فطرته أن لا مناص من تغيّره الآن.

## عاجل وسرّي للغاية

**دمشق، 14 آذار/ مارس 2017**

ما أحلانا ما أحلانا دنيانا بعث دنيانا»

قُطع بثُّ تلك الأغنية فجأةً، حشرج مكبّر صوت إذاعة المدرسة الثانوية، شَخرَ ومَخر، ثم أصدر صوتاً يوحي بأن اللاقط قد تزحلق على مِبرشة بصل، صَفْرةٌ طويلة حاكت صور إسرافيل، ثم أتى صوت أمين الفرقة الحزبية حاداً كالديك الصيّاح، ذكر عدة أسماء وكررها، طالباً من أصحابها الإسراع إلى غرفة التوجيه مباشرة.

لم يكن هذا حدثاً غير مسبوق إطلاقاً؛ بل روتينياً يتكرّر يومياً عدّة مرات، تشهد عليه وتسمعه نصف المدينة، إلا أن الاجتماع العاجل والسرّي للغاية -كما وصفه الرفيق أمين الفرقة الحزبية، عبر إذاعة المدرسة، التي تُركت مفتوحة سهواً- كان التفصيل الأول في الحدث غير المسبوق.

توقف جميع طلاب المدرسة تقريباً عن اللعب والحركة والصخب، وأطلت نسوة الحيّ من شرفات منازلهنّ المطلة على المدرسة، لإشباع فضولهنّ بمعرفة فحوى الاجتماع الحزبي العاجل والسرّي للغاي.

«أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة... أهدافنا: وحدة حرية اشتراكية». تفضلوا يا رفاق. يا رفاق اجتماعنا اليوم مهمّ وسرّيّ للغاي، نعرف «كلياتنا» ما تعنيه سرية العمل الحزبي يا رفاق، التزامنا التنظيمي يفرض علينا طوعاً تنفيذ المهمات الحزبية على أكمل وجه، وبأقصى سرعة، وبمنتهى الإتقان، وبسرّية تامة طبعاً، مثل ما نعرف «كلياتنا» يا رفاق نحن حزب ثوري.

«مَعشّ تدقّ الباب يا بغل، نحن في اجتماع خرا سري».

يأتي -هنا- التفصيل الثاني في الحدث غير المسبوق.

لمّا كان معلمو المدرسة جميعهم يجلسون في غرفة الإدارة في تلك الأثناء، يتبادلون النكات الاجتماعية والنهفات الطلابية، والمشكلات الحياتية المعيشية، والحالات المرضيّة، والشكاوى النقابية، غافلين عن الحدث غير المسبوق بكل تفاصيله، لم يجد عامل «البوفيه» بدّاً من تولّيه مهمّة إخبار الرفيق أمين الفرقة الحزبية بأن إذاعة المدرسة مفتوحة في غرفة التوجيه، وبأن اجتماع الرفاق العاجل والمهم والسري للغاية يُنقل في بثّ حي ومباشر إلى نصف المدينة، وبعد إصراره على ذلك، تحدوه النخوة والشهامة الحزبية الثورية الغيورة لطرق باب غرفة التوجيه أكثر من مرة، جاءه الأمر وأتته المعلومة:

«معشّ تدق الباب يا بغل... نحنا في اجتماع خرا سري».

عاد الرفيق -عامل «البوفيه»- صاغراً مكسوراً، جاراً ذيول الخيبة بعد نيله لقب البغل، ودفنَ نفسه بين أكوام علب البسكويت والعلكة والمصاص وقوارير «الكازوز»، التي تناسبت عكساً مع اندفاعه الوطني وحماسته الثورية، عندما انطلق شامخاً مزهواً مسرعاً نحو غرفة

التوجيه، كي يصحّح خطأً حزبياً جسيماً سينال عليه وسام شرف ما، وليس صفة البغل.

لكن التفصيل الثالث في الحدث غير المسبوق للاجتماع العاجل السري للغاية صاغ جوهره.

«يا رفاق، مثلما نعرف «كلياتنا»، رفاقنا في مديرية الصحّة صاروا مسجلين أكثر من حالة تسمم غذائي من جراء تناول بعض رفاقنا المواطنين «للفطورة»، والرفيق مدير المستشفى الوطني خاطب الرفاق في قيادة فرع الحزب عبر كتاب رسمي، بما يشبه الشكوى، واتهم بعض الرفاق بالتقصير الحزبي، وبعدم توعية المجتمع بمخاطر الفطر السام، وبعدم قدرة المواطن على التمييز بين الفطر السام والفطر الصالح للأكل. طبعاً، مثلما نعرف «كلياتنا» يا رفاق، الموضوع معقد وفيه ملابسات كما تبين لاحقاً، لأن ما حدث أمر مختلف، مثلما نعرف «كلياتنا» يا رفاق، رفاقنا الزملاء بهيئة الإرشاد الزراعي، مشكورين، وجّهوا كتاباً إلى رفاقنا بهيئة الحِراج بضرورة رش الحرش بالمبيدات الحشرية، حرصاً من الحزب على الغطاء النباتي والثروة الحراجية، طبعاً يا رفاق مثلما نعرف «كلياتنا»، رفاقنا بالحِراج ما قصّروا، طلعت الطيارات ورشّت المبيدات على الشجر. الذي صار يا رفاق، ومثلما نعرف «كلياتنا»، «شتت» الدنيا بعدها بفترة قصيرة، ونزلت السموم والمبيدات الحشرية كلها لتحت الشجر، هذا كان السبب الرئيس في تسمّم «الفطورة»، وتسمّم بعض الرفاق المواطنين بعد أكلهم لها، يعني الموضوع ليس تقصيراً تثقيفياً حزبياً، كما ورد في كتاب الرفيق مدير المستشفى الوطني بالمحافظة، الموجّه إلى الرفاق الزملاء في فرع الحزب، بس يا رفاق مثلما نعرف «كلياتنا»، الالتزام بتنفيذ التوجيه

الحزبي أمر مفروغ منه وغير قابل للتأخير، ونحن الرفاق أعضاء الفرقة وصلنا الكتاب الموجّه من الرفاق في قيادة الفرع بضرورة تثقيف الرفاق المواطنين لتمييز الفطر السام من الفطر الصالح للأكل البشري، إنما لم يصلنا بعد الكتاب التوضيحي بالملابسات اللي حدثت وحكينا عنها، وحقيقة ما جرى عملياً، لذلك؛ وطبعاً مثلما نعرف «كلياتنا»، إلى أن يدور الكتاب التوضيحي على الزملاء والرفاق بمديرية الصحة، ويعمم على مراكزها، ثم مديرية الإرشاد الزراعي، وخصوصاً الرفاق في الهيئة الحراجية، واجبنا الحزبي يقتضي البدء بحملة توعية وتثقيف للرفاق المواطنين؛ ليصبحوا قادرين على تمييز الفطر السام من الفطر الصالح للأكل. اجتماعنا هذا توضيحي استباقي فحسب، ويبقى سرياً للغاية، ريثما تأتينا التعليمات الإجرائية التنفيذية من الرفاق بفرع الحزب. هكذا يكون قد انتهى اجتماعنا. في أي استفسار يا رفاق؟ «لكان» طبعاً مثلما نعرف «كلياتنا»، تفضلوا ترديد الشعار لو سمحتم: – أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة... أهدافنا: وحدة حرية اشتراكية».

عاد صخب طلاب المدرسة إلى سابق عهده قبل الاجتماع العاجل والسري للغاية، عادت حياة الحي إلى حالتها الطبيعية، وتابعت إذاعة المدرسة...

«ما أحلانا ما أحلانا دنيانا بعث دنيانا».

## نجوت واعتقلوا الجثة المطوقة

**دمشق، 22 شباط / فبراير، 2017**

صوتها الرنان الحار كان يغلي مثل دمي: «تناهبت حلبات العزّ مرتزقاااا»

ترجّلت من الحافلة مُكملاً طريقي، ساهياً عن جعبة ثيابي، فالمحكمة مازالت منعقدة في رأسي، ماذا أفعل الآن؟ من أخبر بالذي حدث؟

زاد في حسرتي أني لم أتعرّف إلى الرجل كما ينبغي بعد، كان تنازلي عنه بتلك السهولة، وعجزي عن المطالبة به وحمايته، قد ولّدا في صدري شعوراً مريراً بالندم والخذلان والضعف -لا أُنكر ارتياحي لخلاصي هذا مؤكد- ولكن كيف تركته خلفي هكذا ومضيت؟! لماذا لم أطالب به؟! كان عليّ استرجاعه أو انتزاعه من يدي ذاك الجاهل ولو بالقوّة.

القوة؟! أي قوة وهو مدجج بأدوات القتل تلك؟!

لم يكن زمهرير دمشق الليلي ما دفعني لأستقلّ سيارة أُجرة؛ بل مطرها الغزير ورياحها العنيفة.

«تناهبت حلبات العز مرتزقاااا»

ما زالت مستمرة، تردد «أمّ كلثوميتها البديعة»، عندما باغتني سائق سيارة الأجرة الكهل، المدثّر بأسماله: الحمد لله على السلامة.

عفواً: «وأنت شو عرّفك»؟!

نظر إليّ الرجل باستغراب المذهول الممتعض، «أشو عرفني لك عين عمّك؟! مو هلق انزلت من البولمان قدامي! قلنا لك حمد الله على السلامة، سامحنا خيّو، قللنا أدب».

أعتذر يا عم ظننتك تتكلّم عن موضوع آخر، الله يسلمك، شكراً لك.

بعد صمت ثقيل انتظرتُ سؤال الرجل عن وجهتي، ولكنه لم يفعل، مضى يقود السيارة متجهماً، وكأنه يعرف طريقي سلفاً، واضح أنه انزعج منّي، عليّ أن أكسر تلك الحال المربكة التي صنعها لبسٌ لا معنى له، فرحت أرنم معها «أم كلثوميتها البديعة» المستمرة، علّ مبادرتي تريح السائق القلق الذي ارتاب في ملكاتي العقلية: «تناهبت حلباااات العزّ مُرتزقاااا».

ضغطه القوي على مكبح السيارة كاد يُخرج رأسي من زجاجها الأمامي، غضبه وانفعاله الشديدان فاقا قدرتي على التقاط وإدراك معظم كلماته التي رماها رشّاً مبعثراً:

«أشو خيييير، أيّا خير ولك عين عمّك؟! أشّو انت بدك تروّحنا دبلّكي؟! مستبقاااا ولك عمي مستبقاااا الله يرضى عليك، أشهد ألا إله إلا الله على هالطلب».

تسمّرت عيناي بعيني الرجل الغاضب الخائف إلى حدّ الرعب، ساد صمت بدا أنه أزلي، وبدونا كحيّين عالقين في قبر معدني أصفر.

صحيح، مستبقا، «تناهبت حلبات العزّ مستبقا» هذا مؤكد، نهشني اكتشاف الخلل الإدراكي الذي طالني، فأنا واثق حدّ اليقين من أنني سمعتها تواً تقول: مرتزقاا، نعم الجواهري قال: مستبقا، وميادة تغنيها أيضاً مستبقا، كيف أسمعها منذ أكثر من ساعة، وفي أكثر من مكان، على هذا النحو؟!!

انثالت تلك الأسئلة في رأسي، وعيناي لمّا تزالا معلقتين بعيني الرجل الكهل، ما ضاعف من خوفه وارتيابه الذي تجلّى في طريقة سؤاله المخنوق الهامس المتحشرج المبلوع اللاهث:

«شو صاير معك أ خيّو؟! إيش بك عم تبحلق فيني هيك؟!!»

خرج جوابي كالطلقة: أخذوا كاتب ياسين.

«لا حول ولا قوة إلا بالله، باينتو بيعزّ عليك الزلمة، عالجيش؟ ولا سياسي؟!، وهوي الله يصلحو ما بيعرف إنو مطلوب؟! كان لازم يفيّش لك عين عمك، الله يرجّعو بالسلامة، بسيطة خيّو الله يسامحك رعّبتني، قلت أشو قصة هالزلمة، ليكون عاملو شي عملي وهربان منّا نقوم نعلق فيا معو، هههههه، معلومك هالأيام ما فيّا أمان طاول طاول، روق لك عين عمّك، بيرجع بيرجع خلي إيمانك بالله كبير».

قهقهتي العنيفة بعد مداخلته تلك أعادت الرجل إلى أوّل السلم، وبدا واضحاً أنه جزم أمر جنوني في خلده، أدركت أن صوغي المتعجّل لجوابي أوقعني معه في التباس جديد، فسارعت لتصحيح الخطأ، يا عم، كاتب ياسين روائي وشاعر جزائري مات عام 1989.

«هالتكسي إلك وهبنا اياها خيو». قاطعتني جملة السائق تلك ورأسي ملتصق بالزجاج الأمامي للسيارة، بينما أمتشق من تحت مقعده عتلة حديدية معقوفة، وفتح باب السيارة وبدأ يصرخ كالملدوغ.

آسف آسف. دعني أشرح لك يا عم لقد أخطأت التعبير.

«لا تشرحلي ولا بشرحلك روحي، خلص عوّفنا اليوم، خلصو البينزينات، بنشرنا، احترق جوان الكولاس لك عين عمك، صارت تخلط مي وزيت، أشو شربان خيّو؟ ولّا محششلك فتّيشي مضروبي؟ جننتني جننتني ولو الله، أشي أخدوه، وأشي مات، وأشي مرتزقا وأشي مستبقا، مين كاتب ومين ياسين مين اللي مات ومين اللي أخدوه ولو الله؟!، أستغفر الله العظيم، كفّرتنا ولك خيو».

أعتذر، حقك عليّ، طوّل بالك، دعني أخبرك بما جرى معي. أخطأت التعبير ليس إلا، سأوضح لك.

عاد الرجل إلى هدوئه نسبياً، وعلى الرغم من انزعاجه الواضح مني، لمستُ داخله ولادة فضول يأكله؛ ليعرف ويفهم حكايتي.

أسافر في أوقات متقاربة، أحمل معي كتاباً ما أقرأ فيه ما تيسّر لي، إلى أن أصل مدينتي، في كل مرة على الحاجز نفسه والشخص ذاته، يأخذ بطاقتي الشخصية للتفتيش والتفييش، كما جرت العادة، لكنني لاحظت أخيراً أنه يدقّق في بطاقتي الشخصية ملياً، تدقيقاً مثيراً للقلق، وكان في هذه المرة قد أخذها وطلب مني الترجّل من الحافلة، كنت الشخص الوحيد الذي طُلب منه ذلك؛ ما أثار قلقي أكثر.

بعد مرور زمن عصيب أعاد إليّ بطاقتي، وطلب مني الصعود والعودة إلى مكاني، تجرأت وسألته بصيغة الخوش بوشيّة: «خير معلم؟ كل مرّة بتاخد هويتي دوناً عن الباقيين وبتفيّشها، وهالمرّة نزّلتني من البولمان في شي؟!

«والله يا حبيب شكلك مو مريحني، مبيّن عليك مسقّف زيادة عن اللزوم، كل مرّة بشوفك متتسلى بكتاب شكل».

«بس والله يا معلم هيك بدنا نلبكك معنا؛ لأنو أنا رايح جايي على الطريق، وهي عادة صعب عليي غيرها»

«لاااا ولا يهمّك يا حبيب، ما في سقلي أبداً، هاد واجبنا، بعدين متتسلى بالكتب! ليش شوبو الوتس أب بطل يسوى، أ فينك تتسلى فيه؟ هات لشوف شو هالكتاب؟ شو ما تقرا هالمرّة؟»

كاتب ياسين، الجثّة المطوّقة.

«كاتب ياسين؟ شو بيقربو لياسين بقوش؟ جِسّة ومطوّقة كمان!! لعما هاد كمين يا حبيب، يلا طلاع لشوف».

صعدت إلى الحافلة صامتاً، وعيني معلقة على كاتب ياسين، وأنا أدرك أن مصيره سيكون المدفأة.

## حيوات افتراضيّة من نوع خاص

**دمشق، 13 شباط / فبراير 2017**

ثم أوصدوا نوافذ حواسي الخمس

لا أعلم بدقة ما الذي أخافهم وأغضبهم إلى ذاك الحد، كما لا أستطيع على وجه اليقين أن أدرك الخطأ الجسيم الذي اقترفته حتى هذه اللحظة! كل ما أثق فيه بوضوح أن جزءاً من حياتي خرج عن سكة الوقت، وعاثت فيه العزلة أحلاماً باهظة التكاليف –وربما– غير قابلة للتحقق.

اكتشفت أن العالم الافتراضي، بالمعنى الأدق للكلمة، لا علاقة له بالتكنولوجيا الحديثة البتة، وتُشكّل الثورة المعلوماتية وجميع مصطلحاتها المنحوتة الموازية لها سخافة –فحسب– أمامه. ومثلما في كل كشف جديد، تبدأ البحث عن أدلّة تدعم نظريتك الجديدة تلك. رعاة المواشي، والرُسل، والفلاسفة الأولون، وغيرهم، تصفّحوا الكون، أجروا محادثات عابرة وأخرى عميقة، راسلوا، شاركوا، تعجّبوا، حذفوا، أضافوا، وحدث أن نَفذَ رصيدهم –فجأة– أكثر من مرة.

إذاً؛ من حيث المبدأ، الافتراضيّة أقدم وأعرق وأعمق من سطحية المصطلح وحداثته، ولها أنواع وأشكال مختلفة.

كل البشرية اليوم تمارس حياة افتراضية سطحية عامة -على نحو ما- إلا أن بعضهم اختبر، أو لا يزال يعيش افتراضية أخرى من نوع خاص.

ـ افتراضية أخلاقية.

تنفتح شرّاقة باب المهجع «4»، تخترق فراغها يدٌ تحمل نصف رغيف خبز جافر، يستجدي صاحبها بذل «مكدوسة»، اشتمّ رائحتها في أثناء زيارة أحد نزلاء المهجع، يقدّم النزيل «المكدوسة» للرجل الذليل بكل طيب خاطر، مع ابتسامة واسعة صادقة. الرجل ذاته -الجلاد ذاته- كان قد أشبع ذلك النزيل ضرباً في صباح اليوم ذاته.

ـ افتراضية التقيّة

مدمناً على لعب ورق اللعب (الشدّة)، و«الطرنيب اختياري» [نوع من لعب الورق]، يبحث كل مساء عن ثلاثة معتقلين عتيقين، بَصموا؛ أي انتهى التحقيق معهم، وليسوا مضطرين إلى الاستيقاظ باكراً، يجمعهم، يوزّع عليهم أوراق الشدّة بحسب الأصول، يختار بنفسه «الطرنيب»؛ بناءً على ما حظي به من ورق، ثم يخلّصهم، بمن فيهم شريكه، مستبدلاً بعض أوراقهم، مستكملاً سلسلة أوراقه، بحيث يضمن الـ «أربطعش»، تبدأ اللعبة، يفوز بالـ «أربطعش» طبعاً، ويخسر اللاعبون، يعلن فوزه عليهم بـ «الدق» [اللعبة]، يعيد الكرّة، وبالطريقة نفسها؛ ليفوز في كل فتّة [كل مرة يوزع فيها ورق اللعب]، معلناً ربحه «البرتية» [لعبة كاملة]، ثم يتهمهم بالغباء، وبأنهم حمير لا يتقنون لعبة

الـ «الطرنيب»، يعيدهم إلى مهاجعهم راضين مبتسمين، ويذهب للنوم هانئاً، منهياً ليلته ضابطاً مناوباً منتصراً ظافراً.

- افتراضية فراغيّة

بعد انتهاء حفل الشتائم والضرب والسباب، «مطمّشاً» [معصوب العينين] تُجرّ -في أحسن الأحوال- من يدك، وتلقّم [تُرشَد إلى] درجة السلّم الأولى، بعدئذ تُترك؛ لتكمل طريق عودتك، نزولاً إلى مهجعك بمفردك، تماماً كالدّابة التي تعرف درب زريبتها بدقة.

منتصف الدرج الهابط نحو الأقبية، عند العتبة السادسة والعشرين تماماً لجهة اليسار، غرفة سيدي أبو أسعد، ثلاث ليالٍ أسبوعياً يجلس فيها خلف مكتبه كالصفر المنتظر أن يصبح عشرة، كأن نابَالم العدو الغاشم قد «حطّ» على رأسه في حرب الاستنزاف، فحول فروة رأسه إلى ما يشبه حقل القمح المسروق على عجل، وصبغ جلد قرعته بألوان عيد الفصح.

يأتيك صوته بغتة: «تعال يا ابني، شو مستعجل على هالسبع نجوم اللي رايح تقعد فيه؟!، شيل «الطماشات»، يلاحظ أنك تتلكأ، فيضيف: على مسؤوليتي يا ابني».

في اللحظة الأولى لرفعك «الطماشات» عن عينيك لا ترى أمامك إلا كتلة خضراء كبيرة، نبغت في قمتها كرة حمراء صغيرة غير منتظمة، كزهرة شقائق النعمان التي هتكتها الريح، طبعاً تدرك تماماً ماذا يريد سيدي أبو أسعد منك، فقد قام بممارسة تلك التجربة عليك أكثر من مرّة.

«شايف هالخابية؟ كيفك فيّا؟».

هنا؛ عليك أن تبحث عن صفات متميزة وجديدة؛ كي تمدح الجرّة الفخارية التي تشبه كل جرار العالم العربي وأنطاكيا وسائر المشرق.

«كيّسي هالجرة ما كيّسي؟ عيّن عيّن، أ بتخِر، و أ بتشِر و أ بتزرزب مي».

رائعة إنها جرّة رائعة سيدي أبو أسعد.

«شراب شراب وعطيني رأيك، بحضّي خرج ترقع مِوّال بعد أول مجّة من هالمي».

بعد أن يطرب سيدي أبو اسعد لكلمات مديحك لجرّته ومائها، يعطيك أمره المعهود:

«يلا، إلى النومُ ولا كِر».

دائماً ينهي سيدي أبو أسعد هذا الاختبار بشبه الجملة التي يحرص على نطقها باللغة العربية الفصيحة، مصراً على رفع الاسم المجرور فيها.

في تلك الحياة الأخرى، تُوصد نوافذ حواسك الخمس، لتعيش حياة افتراضيّة من نوع خاص، افتراضية سوريالية متعددة الأشكال والألوان لا يعرفها «سلفادور دالي»، ولا حتى المستر «مارك».

## لا أضلع تطال الضفتين...

**إلى خليل حاوي**

**بيروت، 30 أيلول/ سبتمبر** 2017

متى تصمت المدافع يا ترى!

لم ينضب الرصاص بعد، والقنّاص يزداد ضراوة ومهارة في القتل، الموت سهل وحاضر ومتاح، والأرض في شوق دائم إلى ابتلاع الأجساد النحيلة الهادئة، البحر مخمور يفترش مآدب الغرقى، ويترع الأرواح طازجة معربداً، مع كل جزر ومدّ. بينما السماء باتت مجرد كفن بلا ثمن مزقته الطائرات.

كيف بعد هذا يا خليل! سيصمت شاعر كاذب أتقن فنون الحُبّ والنحيب؟ ومع كل نبضة رعب تدبّ، يسقط منّا دويّ وضحيّة ومنافق ومناضل، ولنا دويّ وضحيّة ومنافق ومناضل، وعلينا دويّ وضحية ومنافق ومناضل!

متى! والمفتاح الصدئ المعلّق في ضفيرة صبيّة شابت الآن، وذكرى صرير باب الدار في رأسها لم تشب؟ كيف والبيت تغيّر،

والباب تغيّر، والقفل تغيّر، وتغيّرت ملامح الطريق، وحرس الحدود تغيّر؛ وتغيّر وجهها فصارت غريبة في بلد غريب؟

كيف بعد أن احتلّت البغال حواضر الخيول التي اغتيلت، هُجّرت، هجّت بليل، أو أوثقت بنِير وكبّلت بجنزير؛ فتسوّد آباؤها ميادين السباق، وصارت رهانات الجميع -كل الجميع- على الحمير؟

أين السبيل والجحش قائد القطيع يخطئ في قراءة كلمتين (خط النهاية)؟ كيف وأين سيعلّق الفائزون دبابيس الأوسمة الرابحة، وكل الكل باتوا على ظهور المطايا الهزيلة، عرايا، سبايا! وطغى النهيق على المسامع، بعد أن غاب الصهيل؟

لا صبح يأتي -يا خليل- لسنا خفافاً ولا ثقالاً، ولا أضلع تمتدّ لتطال الضفتين، والجسر تصدّع، انهار على وقع طبول الترحيب بالغرباء، والجحش أهدى انتصار سباقات الحمير للغزاة، «ونهر الرماد» فاض حقداً وسعيراً وحمماً ولهيباً.

العابرون ملّوا الانتظار.. رحلوا بعيداً، أو قريباً لا فرق هنا. بعضهم آثر النهر كي ينجوَ من الضفتين المؤجّلتين الغارقتين في الضباب، أيضاً لا فرق هنا أو هناك، فالمسافات صارت كلها انتظار. وتبقى رصاصة القناص أوضح الخيارات، وأسرع من خطو موتهم الثقيل، والله لم يملّ من موتنا البطيء بعد، إذاً.. متى، نعبر، الجسر، يا خليل!؟

كيف، وقد بيعت ضفافنا الأربع، وقبلها سماؤنا، بحارنا وماؤنا بيعت. بلداتنا، حاراتنا، بيوتنا، أجدادنا، آباؤنا، أسماؤنا، أقوالنا بيعت، قلوبنا أكبادنا أطرافنا دماؤنا، أنفاسنا بيعت، هواؤنا، أشجارنا، قمحنا، زيتوننا، ثمارنا بيعت، صار عزيزٌ تينُنَا، فودكا رخيصة! وصرنا نموت ونعلم لاحقاً أننا متنا؛ فتأتي رسائل نعينا إلينا بعد حين؟

طوبى إذاً لمن رحلوا في حمأة معركة العبور، ولا بأس بمن قضى في ساح سباقات الحمير. فغداً سيسجل التاريخ أنّا: نحن -السوريين- «كلنا شهداء».

ذلك بعد أن نعبر الجسر يا خليل.

«هل كلنا شهداء»؟

## موقد الوقت إلى عادل

**بيروت، 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 2017**

عرفت أحدهم.

كأشباح الضباب، هائمين على هامش الضوء، بهدوء الغبار، حطّوا علينا يذرفون أحلامهم بسخاء الكرام، هيفاء الرؤى، غزيرة المعاني، باهظة الألم.

مثل جوقة إغريقية متمرّسة، أتقنت تلمّس الإله في عطر وردة، طافوا حولنا يؤدّون مناسكهم أمامنا همساً كل مساء، برشاقة الخيول الوحشيّة، جابوا كواليسنا الضيّقة الواطئة المعتمة، يشعلون قناديل الزيت المعلقة على جدرانها الحجرية الباردة، الغارقة في القِدم.

غنّوا للريح ألحان القمح، والحُب، والحريّة، والحرب، والأرض، والورد، والعنب، والفقر، والصدق، والتعب، والدمع، كما غنّوا عن الخذلان والعتب، وعن شقاء قلوب الأمهات المنتظرات عيوناً طال غياب وجوه أصحابها. لم تُسمِع أناشيدهم، في حينها، إلا نزلاء العتمة والليل والوحل الحالمين بالنور.

عرفت أحدهم؛ فعرفت بعضهم.

بينما كان الكل أمواتاً أو خدارى أو جليداً، ضجّت رؤوسهم صخباً بالأمنيات، وغلت قلوبهم بحرارة الخطو الحثيث نحو غدٍ مختلف، بشغف النار لقصَلِ صيف حارق، التهموا الأسئلة، بحثاً عن رشفة جمال احتجب خلف ابتسامة طفلة، وجدت كسرة ممحاتها الضائعة، وعن لحظة حق خجولة تحوم في صدر مظلوم، تصعد العنق ثم تغور، تحاول التحرّر من محبس حنجرة مبحوحة حانقة، وعن رغيف خبز، وعن كأس ماء، وعن حبّة زيتون مجعّدة كوجوه الآباء المتحلقين حول موقد الوقت المنتظرين عودة الضائعين في الحرب.

لم تكن من ثورة، حينها كانت المدن تخاف جدرانها، وتخاف ظلال الملاقط على حبل غسيل، عندما تحدّوا المقصلة. كانوا ينتظرون ثورة، بينما لم يدركوا أنهم هم الثورة.

عرفت أحدهم؛ فعرفتهم كلهم.

إذ حضروا بيننا خفافاً، كالشهداء المنتظرين بصبر نوافذ السماء الموصدة حتى ينبلج معراجها، عاشوا معنا ثقالاً، كالآيات المحكمات. بشجاعة من لا يملك شيئاً، دون كلل، جابوا أزقّتنا كالنمل المثابر، يستنهضون أرصفة ذليلة غارت عن شوارعها، دَفنت ألوانها المتعاقبة المزابل، ودنّست أعمدة نورها صور القادة التافهين، وبول كلاب الحرس والعسس والمخبرين، وشوّهت جنباتها أقمشة متّسخة بالية، كُتب عليها كلمات جميلة كاذبة، تمجّد انتصارات جميلة كاذبة لكذّابين بشعين.

عرفتهم.. لم يكن لليلهم معنى السكينة والهدوء، كانوا يحرثون دروبهم باليقين، فإذا نال من أوصالهم التعب؛ تحلّقوا حول موقد الوقت يطعمونه أعمارهم، ويستدفئون بالأمل والنبيذ. حتى إذا ما بزغ

الفجر شُحِذوا من جديد، توضؤوا بالندى عراة السريرة، وصلّوا الأمل جماعة مع العصافير، وجرّوا الشمس من مخدعها بحبال الثقة... كيف ينظرون إلينا الآن يا ترى؟ أما زالوا بيننا!؟ كيف يرون مواقد وقتنا!؟ كيف يناجون موتنا؟

عرفت أحدهم جيداً؛ فعرفتهم كلهم جيداً، كان اسمه رشيد، ثم عادل، ثم... شهيد، عرفته حياً وما زال حياً، كما هم جميعهم. ولد شهيداً، وعاش شهيداً، ورحل شهيداً.

## وحش الذاكرة

**بيروت، 5 كانون الأول/ ديسمبر** 2017

فاقداً رغبته بالقتل، ذات فجر، سينهض الوحش محشوراً داخل جسده الضيّق، كئيب الروح، مقبوض القلب، هشّ العزيمة، زائغ البصر، مشوه البصيرة. سيزحف على بطنه الخاوي راحلاً على غير هدى، في أحسن الأحوال، منبطحاً سيجانب صخرة شاهدة على ضحاياه، إلى أن يَنفُق وحيداً تحت الشمس، فوق تلةٍ من صور ناقصة سقطت منها الألوان وعنها الملامح، وأصوات مهجورة الأحرف بعيدة الصدى... وآجلاً، سوف تجد هذه الحرب الحائرة نهاية المتاهة، ستتبع اتجاه جريان نهر الدماء.

خرجت الحرب الهرمة من النفق حُبلى، فما إن مسّها النور ولفحتها نسائم الضوء، حتى دخلت في المخاض، بيسر المجزرة الباردة السريعة متقنة الرسم، مُحكمة التخطيط، طريّة اللحم، وضعت الحرب مولوداً مسخاً، ثم بدأت الاحتضار، بصعوبة استجمعت أنفاسها المتلاطمة وقالت: يا بني يتّقد الماضي؛ كلما أصبح الحاضر باهتاً، عُد من حيث أتينا، ابحث عن أبيك حتى تجده، فتقتله، ولا تنسَ أنّي أسميتك «ذاكرة».

كيف لي أن أعرفه؟! ماتت الحرب، قبل أن يحصل منها على جواب.

حفر لها لحداً عميقاً في صدره، دفنها، وأهال عليها كسرات زجاج. مضى «ذاكرة» دون أن ينظر خلفه، ودخل النفق الذي خرج وأمه منه. كان قد ضاع «ذاكرة» في المتاهة دهراً، قبل أن يصل ويخرج إلى الضفة الأخرى؛ فيجد وحشاً سقيماً يلهث كالمطعون برمح مسموم، ممدداً إلى جانب صخرة حمراء كبيرة، ما زال الوحش على قيد الحياة.

– أبحث عن أبٍ لي.

– ما أنت؟ سأله الوحش.

– أنا ذاكرة.

تقلّص الوحش على نفسه، ونجح في رفع رأسه قليلاً، زمّ عينيه الغائرتين، ونظر إلى «ذاكرة» طويلاً، بتمعّن الأعشى الذي ينظر إلى مرآة عبر سراب أو ضباب، رمى برأسه على الأرض ثم قال:

– برهن لي أنك ذاكرة، وستعرف أبيك.

بدأ «ذاكرة» يفيض على الفور، كالبركان:

– سيظهر ألف سالم بن ربيعة بينهم، في كل لحظة ستولد لهم يمامة، سيبقى صوت الرعد يستحضر قصف الطائرة، قبل أن يدركوا المطر، وومض البرق سيحاكي ارتطام الصاروخ على عتبات منازلهم، إلى زمن من مسد، سيبقى وميض الكاميرا يُربك وجوههم بين موقفين، ابتسامة لازمة، أو الرعب سابق الانفجار، سيكون صوت مطبعة الكتب مُلازماً لصوت ارتجاج البنادق، ووفرة علب الحليب المكدّسة على رفوف المحال، سيعمل كمعول ينبش أرواح أطفال قضوا جوعاً، تحت الحصار، سيبقى خفق أجنحة الحمائم يطابق مروحة القذيفة الهابطة

خلسة بصمت، سيبقى أزيز نحلة تجمع الرحيق أشبه بصوت رصاص مَرّ سريعاً فوق رؤوسهم، سيبقى خلع غطاء زجاجة البيرة أشبه بصوت كاتم الصوت، ستتطابق ضحكاتهم مع صراخ معتقلين كثيرين قضوا تحت التعذيب، سيكون الطلّ الصباحيّ رعباً كغاز السارين..

قاطع هياجه الوحش بحشرجة عالية، وشهقات سريعة عميقة متوالية.

صمت «ذاكرة»، ونظر إليه قليلاً، ثم باشر في دفن أبيه فوق تلةٍ من صور ناقصة، وأصوات مهجورة بعيدة الصدى.

## «سانتا» على خطوط العيد

**بيروت، 31 كانون الأول/ ديسمبر** 2017

لم تكن فكرة التقسيم قد وُلدت بعد...

الكلاب الشاردة تحوم حولهما.

أكثر ما يشغلنا الآن إلهاء عيون القناصين.

في ذاك المكان وتلك اللحظة، على مسافة واحدة من ثلاثة أصوات تجاورت في دائرة واحدة، لا يتجاوز طول قطرها خمسين متراً، وقفنا عاجزين عن سحب جثتيهما، كلما رمينا شلف الحديد المعقوف نحوهما؛ علق إما بكيس الكعك الكبير وإما بكيس البالونات والزميرات وأقنعة وجوه الحيوانات المبتسمة. وعلى الفور تأتي رصاصة الراصد، ليقول: «أنا هنا». كان يتسلى.

ها قد بدأت الكلاب تتجمع، تخبّ، تداور الجثتين ترسم دوائر حولهما، وكأنها تراجع خطة الاقتحام.

لم تكن فكرة التقسيم قد ولدت بعد.

قسمنا المهمات بيننا، أحدنا يرمي الكلاب بالحجارة، يبعدها عن

الجثتين الهامدتين، وواحد يرمي شلف الحديد الطويل محاولاً اصطياد أحد الجسدين الباردين، وآخر يراقب السماء والأرض.

لم تأبه الكلاب لحجارتنا، ولم تجفلها رصاصات القناص، وقد أدركت فطرتها أنه يحميها ويبعدنا، كما اكتشفنا أنها لا تحب كعك العيد الذي انتثر حول الجسدين الممزقين بالرصاص.

لم تكن فكرة التقسيم قد ولدت بعد.

الطريقان المتقاطعان، خلفنا تماماً، قسّما المكان إلى شرق أمامنا حيث الجثتان، يسار عامر بأضواء العيد وألوانه وتراتيله، ويمين غارق في العتمة والبؤس والآلام.

همهمات كلاب كانت وفيّة، في يوم ما، قبل أن يحوّلها هجر أصحابها وتشرّدها وجوعها ووفرة الأجساد الممزقة إلى وحوش مفترسة. وبكاء طفل حاد مصاحب لصكيك ملعقة تقحط قعر طنجرة فارغة، وأجراس غزلان «سانتا كلوز» وبيانو كلاسيك، اجتمعت كلها في ريح باردة واحدة، تشقّها بين الحين والآخر رصاصة سريعة.

لم تكن فكرة التقسيم قد ولدت بعد.

يساراً، من البعيد، ظهر «بابا نويل» يهلّل ويرقص، يقرع جرساً مسروقاً من مدرسة ابتدائية، يشق طريقه قادماً بين العتمة والنور، بدا طويلاً ونحيفاً جداً، مستعيضاً عن الأيائل بدراجة هوائية صينية من ماركة «هركل»، كلما اقترب أكثر؛ ازداد عدد الأطفال المطلّين على الشارع من شبابيك نوافذ مضاءة بعناية، وعبر شرفات منازل لم تطلها الحرب، فازدانت بمفارش نجمات واسعة، ذات ألوان متعددة تتراقص بإيقاع محكم.

بدأت صيحات الأطفال تعلو بانتظام واتساق: «بابا نويل، بابا نويل، بابا نويل....».

شرقاً، كانت الكلاب قد بدأت نهشَ الجثتين الخامدتين وسط الساحة الصغيرة مهجورة الحياة، راحت تكشط ثياب بابا نويل عنهما، فاختلط الأحمر بالأسود بالأحمر بالأبيض، لم نفلح بإبعادها عنهما، ولم ننجح في جرّهما إلينا، لم يسمح لنا القناص بذلك. لقد أصرّ على الفوز بلعبته. لو تركَنا نفلح بالعبور تلك الليلة فقط؛ لكان «بابا نويل» وصل إلى أطفال انتظروا وصوله طويلاً، لكن الريح أصرّت أيضاً، ولم توافق على لعبة القناص تلك، فحملت مزق ثياب بابا نويل، وأقنعة وجوه الحيوانات المبتسمة، وبالونات ملونة والزمّيرات إلى الداخل، وأخذت تدحرج كعكات العيد نحو الظلمة الموحشة.

لم تكن فكرة التقسيم قد ولدت بعد.

من اليمين، أطلّ طفل صغير عن سطح بناء هشّمته المدافع والصواريخ، فظهر كتفاحة وقعت بين فكي فحل ماعز جائع، أخذ الطفل الصغير يصرخ ملء صدره: «بابا نويل، باااابااااا نويل، بابا نوييييل».

لكن كيف لـ(سانتا) الذي بهرته الزينة الوهّاجة، والأضواء الساطعة البرّاقة، وصيحات الأولاد العالية مجتمعة، واحتفالهم به على الطرف الآخر، أن يلاحظ طفلاً واحداً يقبع في العتمة، فوق سطح بناء متآكل متهالك.

لم تكن فكرة التقسيم قد ولدت بعد.

استسلمنا... كانت تلك ليلتنا الثالثة التي نحاول فيها سحب جثتي صديقينا «البابا نويليين»، اللذين حاولا كسر الحصار، والدخول إلى فم الموت لزرع البسمة على وجوه أطفال لاكتهم أنيابه كل يوم.

انسحبنا من شرقنا، كان بابا نويل الحي قد أصبح وسط الشارع،

أطفال الضفة اليسرى ما زالوا يهتفون له، طفل الضفة اليمنى يئس من جذب انتباه (سانتا) له، فاستجمع صوت كل أطفال الغوطة الشرقية، وقهرهم وجوعهم، وبؤسهم في صوت واحد، أطلقه كالزلزال الهادر: «بابا خرااااااا». التفّ (سانتا) نحو الصوت مصعوقاً، رأيت اعتذاراً في وجهه. صمت الكون. ولم نعد نسمع إلا عويل الريح، ووقع أقدامنا الخائبة.

## فقط لو حفظت رقمك

**بيروت، 30 كانون الثاني/ يناير 2018**

جسد مسروق عارٍ إلا من الحزن والحلم، على استحياءٍ نظرَ إلى عجزنا، وهمس خلسة: تماماً هكذا يولد الخريف... تماماً هكذا تغرق المراكب...

و.... للصمت بلاغة الموت، إذا سَفح اللسان دمَ المعاني، وله طهارة الكفن الشفيف المخضّب بماء الورد، إذا ما خالج صوت الحق الشك. لا تستغث، أيها المسروق بليل، فغير أمّك لن يسمعك، أمعن في الأمل، تفرّس ما استطعت بخيط ضوء يفتض نافذة مرسومة على عجل بالطبشور على جدار، واكتب حكايتك الأخيرة بظفرك المخلوع على جلد بطنك، كي يُلقيها لاحقاً متبجّحاً منّا علينا في مأتمك. لك تخيّل صوته الجهوريّ المنشّى، ولك توهّم حصافة الذي سيمجّد قهرك، ووقاحة المتفاخرين بنبل صبرك، ولك تصوّر الحشد المهيب يحيون ذكرى مقتلك. تماماً، هذا آخر ما همس به المسروق، قبل أن يصبح رقماً رُسم على عظم.

نعم... ونحن لنا اعتراف وأسف. لقد أضعنا سلالم الوصول

إليك، وفقدنا باب خروجك من قبرك إلينا، ونسينا مفتاحه الوحيد في صحن فنجان الشاي الأخضر، على طاولة زجاجية مستديرة في ردهة منتجع بعيد... ربما! إنّا نعتذر. ولربما سقط من أحد الرفاق في جيب ساقطة، في غرفة المسّاج في الطابق السفليّ لفندق ساقط لا تنقصه إلا نجمة واحدة كي يصير فريقاً ساقطاً! على كل حال، إنّا نعتذر. وهناك احتمال كبير -أيضاً- بأن مؤخرة أحد المشرفين المناضلين التافهين المكلفين بالبحث عنك، التي ابتلعتنا، قد ابتلعت المفتاح وابتلعتك! نعم هذا وارد، عموماً، قدّمنا نقداً ذاتياً واعترافاً وأسفاً، بشفافيّة، لقد بيع باب الحديد قبل أن يتم بيعك.

وكما اتفقنا، لقد اعتذرنا، فلا تستغث، لُذ خلف سوطك أيها المسروق، واسمع حكايتك الأخيرة، ملحمة آمالك وأحلامك ورؤاك التي حدثت، بعد صوتك وقبل صمتك. لقد أُهدِيَت أمك للجنود المارقين المثقلين بإرث القتل المدججين بالثارات، قُدِّمَت هبة لزناة سَفحوا كبرياءها على مهلٍ، لطغاة كنسوا ماء وجهها المتجلّد كحطام المرايا، ثم رموها كتلة خِردة عتيقة مُنهكة بالصدأ، تقشّر عن أخاديد قلبها نبرتك وصورتك، ثم تصدّعت مثل صخرة هشّة، تفتت، وتمطّت آلامها خجولة أمام روحها المخذولة، بعيداً هناك على حدود تنازعوا عليها، في أرض يباب، ليست لنا وليست لهم ولم تكن يوماً لأحد، رُمِيت على رمل غريب، في ظل خيمة خفيفة واطئة، للأمم الصديقة الواطئة، تنظر إلى الأفق العريض، متى تُطلّ؟ كل يوم تسألك؟ وتسأل المانحين رغيفَ الخبز، كي لا تموت قبل أن تضمّك إلى صدرها، إلى قهرها إلى حِجرها إلى صبرها إلى جوفها إلى نقيّ عظامها، شريانها، إلى حُمرة حُمرة دمها.

اطمئن، لا بأس بها أو عليها الآن، لقد اختنقت في آهها عليك ومنك، ماتت وهي تقول لك: لا بأس أن سقطت في منتصف الطريق يا بني، فقط لو عِلِمتُ فحفظت رقمك.

## أرادوهـا هكذا

21 **شباط / فبراير** 2018

... وليست كحذوة البغل حتى

يتألف الحذاء بالضرورة من فردتين اثنتين متطابقتين حتماً، إن كان في الشكل أو في المضمون، فتكمّلان بعضهما بعضاً جمالاً وراحة مداس، أو تتكاملان اهتراءً ووضاعة وتقهقراً. في حالة التكامل والتطابق فقط تستطيع أن تطلق عليه اسم حذاء، فإن لم يكن كذلك وظهر التباين والاختلاف؛ يصبح الاسم فـردة حـذاء، فردة حذاء وحسب.

... هذا وقد ابتليت الأحذية بوحدة المصير المشترك! فالبشرية عموماً، والأمة العربية على وجه الخصوص، والمواطن السوري حصرياً، كأوضح مثال على ذلك، حتى الآن، يستطيع أن يُمضي حياته كلها بعين واحدة دون الأخرى، أو بأذن واحدة دون أختها، قدم واحدة، يد واحدة، كِلية واحدة. خِصية واحدة، مبيض واحد... قائد واحد.

يستطيع استخدام فردة جراب واحدة، أو فردتين مختلفتين، أو فردة قّفاز واحدة، ولعل الموضة تمنحه فرصةً لاستخدام فردتين

مختلفتين في آن معاً، ولكن المعضلة الكبرى تبقى... في الحذاء!! في إشكالية... وحدة مصير الفردتين.

مهما يكن الحذاء جميلاً، مهما بلغت جودته ورفعته، وأصالته، مهما علا نسبه، لا يمكن لذي عقل وإدراك ووعي أن يعتمد استخدام فردة حذاء واحدة دون الأخرى. بمعنى، إن سقطت الفردة الأولى أو ضاعت، باتت الأخرى ساقطة بالضرورة، وبلا نفع.

وتتجلى مشكلة البديل في الأحذية!! فمن غير الممكن أن تعتمد فردة حذاء دون الأخرى، إما أن تقبل الحذاء بفردتيه وإما تتركه بفردتيه، ومن غير المقبول -أيضاً- أن تأخذ فردتي حذاء مختلفتين! بهذا ستسقط عنهما صفة الحذاء وستبقيان فردتين. إذاً لا بديل ولا تبديل ولا خيار آخر متاح.

وحيث نجول في الأوطان العربية حفاة كي تتضح الفرضية، سننتعلُ أفكار قادتها الملهمين كي يكتمل البرهان. الوطن وقائد الوطن... لاحظ!... وحدة عضوية، مصير مشترك، توائم سينيّة، صنوان تماماً كفردتي حذاء.

بسقوط أو ضياع أحداهما يتحول كل منهما فوراً إلى فردة، إن الوحدة العضوية والمصير المشترك، والوظيفة المنشودة لفردتي «الصبّاط» معاً، التي تجعل منهما وتكسبهما صفة الحذاء الواحد المتكامل، تتطابق على نحو مثالي مع المصير المشترك والوحدة العضوية بين الوطن كشعب وسيد، والوطن كعبقري! كيف يستوي أن يكون وطناً حراً مستقلاً ذا سيادة، بلا قائده المُلهم باعتباره الفردة الأخرى؟! هكذا سيصبح اسمه فردة وطن! فردة وحسب، وكيف لسيد قائد عبقري عظيم، لا يتكرر ولا يتبدّل، أن يكون بلا فردة وطن! في هذه الحالة سيصبح فردة قائد ليس إلا.

بوضوح أكثر، عندما نقول سيادة وطنية، هذا يعني -وجوباً- توافر فردتين متطابقتين في الشكل والمضمون، مرتبطتين عضوياً، يجمعهما مصير مشترك. من هنا وجب الحرص على الشعب فردةً أولى وعلى سيد الشعب فردةً ثانية، كي يبقى لدينا سيادة وطنية متكاملة؛ أي سيادة وطنية بفردتين. هنا -تماماً- يكمن جوهر مفهوم السيادة الوطنية، وفق النظرية الثورية للحزب الخازوق.

فالقائد بلا فردة الوطن سيصبح فردة نعل مدقوق بمسمار، كمكبح مثبت في طرف عربة خشبية مستطيلة لنقل الكوسا والبطاطا في سوق الهال، تدوسه أقدام العتالين، كلما ازداد الاندفاع الوطني للعربة.

كذلك الوطن بلا فردة قائد، سقفه أن يصبح فردة تعويذة ورقية مكتوبة باللحم والدم، معلقة بخيط قنّب فوق مدخل كرخانة تحمي قدود العاهرات الروسيات من حسد باقي المومسات متعددات الجنسيات.

تقول التعويذة المعلقة: «يستمد الوطن قيمته من ذاته، من عمقه الإنساني الحضاري، من بعده التاريخي الزماني والمكاني، لا من شخص محدد، ولا من حزب معين، ولا من جهة أو فئة أو جماعة عابرة. لا تربط وطنك وأهميته وسلامته وحبك له بقيمة زائلة، فتجعل منه فردة، مجرد فردة فقط... حتى لو أرادوها هكذا».

من الآخر: نظراً للوحدة العضوية والمصير المشترك بين الفردتين؛ الكل للحذاء والحذاء للكل، «عاجبك منيح مو عاجبك فِل».

## هيبة بطعم الشاي

5 آذار/ مارس 2018

اعتادت «وزناء»، ابنة الشيخ هزّاع، اغتصاب زوجها، كلما ارتفع صوته في نقاش أو حوار، أو إذا تصدّرَ حديثاً ما وإن كان عن غير قصد، أو عندما يصرّ على رأي، على قلة ما كانت تحدث هذه الأخيرة.

بلغ الأمر بزوجها متروك -على حرج- أن شكاها إلى أبيها أكثر من مرة، فما كان من الشيخ هزّاع إلا نصحه بالابتعاد عمّا يجعلها تُقدم على هذا الفعل، معتذراً، مبيناً له عجزه عن ردعها.

عاش الرجل فترة طويلة على هامش الاهتمام، بلا وزن، وبلا حضور، وجوده فائض، وغيابه غير ملحوظ، حتى حدث أن أنقذته «الأزمة» من التهميش، بعد سباق ماراثوني مضنٍ، أثبت من خلاله ولاءً منقطع النظير، ووطنية نادرة الوجود. ألزمه منصبه الجديد -بمناسبة أو من غيرها أحياناً- إلقاء محاضرات في التوجيه السياسي على مسامع رجال الحي، وقد بدأ يختبر ويتلذّذ طعم الهيبة الآن.. لم تأتِ مواسم المنايا غزيرة هكذا من قبل.

مزّقت جملة الشيخ هزاع صمت المكان، أعقبها بعض الحضور،

فرشّوا حفنة من المفردات الرخوة التي تفيد التأييد والتأكيد، وسرعان ما تلاشت كضباب الصيف، فانقشع سكونهم من جديد، إلى أن هزّه -ثانية- صراخ أحدهم من خارج المضافة، معلناً قدوم الرفيق أمين الفرع.

ضجيج محركات المركبات التي وصلت، وصوت الأغنية المُرافقة للموكب دائماً «نحنا رجالك بشار» مخرت سماء البلدة. بدأ الرجال بتعديل جلساتهم واستنهاض قاماتهم وضبط هندامهم، والتنحنح، والتنخّع، والتقشّع...

«أبو هايل»، المساعد المتقاعد الذي خسر نصف مقدرته على السمع في إحدى معارك تشرين التحريرية، وأتت السنون على نصفها الثاني، غلبه النعاس، فأتاه التنبيه وسط هذا الضجيج جهورياً ممطوطاً متين اللفظ، ومن أبعد زاوية في المضافة: «يا بو هايل، هييي بو هايل، قوم يا زلمي إجا جوز وزنا». انتفض الشيخ هزاع مصححاً بامتعاض: «اسمو الرفيق أمين الفُرع محلكنش تفهموا؟ عالقليلة قول الأُستاذ متروك ولووو!». أوضح الرفيق «أمين الفرع»، بسلاسة وبساطة وبهدوء قدر المستطاع، الواقعَ السياسي الراهن، وفنّد المواقف الدولية وأبعادها الاستراتيجية العميقة، وظهّر المصالح الاقتصادية والسياسية المتضاربة للقوى الرئيسة المتقاتلة، ثم عرّج على تعقيدات الموقف الميداني، وأكد رجاحة وحنكة القيادة السياسية في إدارة هذا الصراع، ولم ينسَ إبراز دور العدو الإسرائيلي الخفي في ما يحدث، جازماً -بلا أدنى شكوك- بحتميّة الانتصار الإلهي على محور الإرهاب.

«عفواً بس في نقطة هون.. دخلك رفيق بدي اسألك، معليش خُذني

عاقد عقلاتي، يعني هالقوات الرديفة كلياتها، بعد بتطلع من البلد بس يندحر هالإرهاب كلياتو؟».

اختلاجات صوته في الإجابة عن سؤال أبي نواف المهم، وتفاوت حدّة نبرته، واختلاف معاييرها علواً وانخفاضاً، وتفاوت مسافة بصاقه بعداً وقرباً، بين ضرورة حماسة الخطاب الوطني وأهمية يقين الرد والإجابة من جهة، والامتعاض الضمني والقهر على مصير حتمي ينتظره بعدها، من جهة أخرى، غالباً ما كان يُفسر من قبل المستمعين بأنه تفوّه وفصاحة في الحديث، وفنّ في الإلقاء والإقناع. في الحقيقة أتى جوابه وخطابه حلزونياً أشبه بصوت آتٍ من «كاسيت» قديم، وقع ضحية فم طفل بدأت أسنانه بالنمو حديثاً. إلا أن كلمات الرفيق أمين الفرع كانت تتلاشى قبل وصولها إلى أذني أبي هايل المعطوبتين؛ فصرخ به من بعيد: «شد صوتك يا سيادة أمين الفُرع، بدنا نفهم مجريات الأحداث يا عمي». وسرعان ما صرخ الشيخ هزاع في حركة تحذيرية قاطعة: «وزناااااا، الشاي يابا».

كان يتجلّى حُلم الأستاذ متروك في هذه اللحظات العصيبة، ويتلخّص في أمنية واحدة: نقل مكان سكنه خارج دار الشيخ هزاع، أو على الأقل، الانتقال إلى غرفة بعيدة عن المضافة، حيث معظم اجتماعات أهل البلد؛ إذ يقوم بتوجيه غالبية خطاباته السياسية التي تستلزم بالضرورة المحاججة والصوت المرتفع، نعم هنا، في مضافة الشيخ التي تحاذيها من الشمال غرفته هو ووزناء، ويحاذيها من الجنوب مطبخ الدار، ما يعني تحقق احتمال شبه مؤكد بوجود زوجته وزناء ابنة الشيخ هزّاع داخل نطاق التغطية والسمع.

انتشل تعليق مدير إعدادية البلدة الرفيق أمين الفرع من حلم

اليقظة: «رفيق متروك، ولا يهونوا السامعين، تواخذنيش عندي كلمتين بدي قولن وأجري عالله، تحملني معليش، إسّا نحنا خسرنا شباب شُهدا مثل طرابين الحبق، وهني عبيقاتلوا الإرهاب، صحيح؟! عال، وكمانتي معليش سامحني بهالكلمة، في نفس الوقت والتوقيت ربما، راح لنا شباب بيسوو ثقلن بفروعة الأمن تحت التعذيب، وهذول كمان شُهدا.. معليش تواخذنيش بهالكلمة، يعني مثلينا مثل أهل سوريا كلياتا، اليوم معش في شي مخبّا، يعني طلع الضو، وانعرف الكلب من الغزال، ومعش غير الكلب يعفط البِس.. صارت مسألة وقت بَس، اللي بدي قولو، معليش سامحني بهالكلمة، اللي عب يصير اليوم نحنا معش إلنا فيه لا ناقة ولا جمل. بيكفّي اللي صار وعبيصير بهالخلق، يعني معليش تواخذنيش بهالكلمة، بلغ السيل الزبا و....».

استفزّ كلام المدير السيدَ أمين الفرع، فقاطعه بحدّة وأقلع بالحديث. صرخ الشيخ هزاع: «وزناااا»؛ فاحتدّ الرفيق أمين الفرع أكثر. أتت محاولة التحذير الثانية: «الشاي يا وزناااا». ارتفع صوت متروك كثيراً. جلجل الشيخ هزاع: «وزنااااااا، وين الشاي، يا وزناااا؟».

وقع الرفيق أمين الفرع في المحذور، استدرك، توقف عن الكلام، وغرز ناظريه بالسقف، بلع بصعوبة، ضرب كفاً بكف، وأطلق صوتاً متصلاً طويلاً يشبه علامة الـ «لا» الموسيقية، لاااااا. ثم نظر إلى وزناء التي دخلت تواً مُختالة تحمل إبريق شاي كبيراً.

طغى الصمت الأول، لحظات ثم هبّ أبو هايل صاحب الأذنين المعطوبتين كالملدوغ: «شوباك ولو هزّاع!؟ مفكرنا مش شربنين شاي بحياتنا، خلينا نفهم مجريات الأحداث بالأول، ها إجت وزنا، صبّي شاي لجوزك يا وزنا، صبي».

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»:

**بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:**

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفييه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.
11. لم تنته الحكاية بعد، رؤى الإبراهيمي.
12. إكثار القليل، دارا عبد الله.

**بدعم من المنظمة الأورو ـ متوسطية لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان:**

13. رسائل من سورية، وجدان ناصيف.
14. يوميات وقصائد، علي جازو.
15. انسَ دمشق، عمر يوسف سليمان.

**بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:**

16. ما تبقّى من حياة، سهى زكريا.
17. لا تغمض عينيك!، د. حسّان عبّاس.
18. الدرب مسامير، منار سهران شلهوب.
19. قنديل أم هاشم المفقود، عدي الزعبي.
20. الموت كما لو كان خردة، وداد نبي.
21. مذ لم أمت، رامي العاشق.
22. كأنها قيامة، محمد صدّيق عثمان.
23. خالي الذي في قبضتهم، ملاذ الزعبي.
24. مغلقة بسبب الإصلاحات، منذر مصري.
25. منازل الأوطان، نجاة عبد الصمد.
26. كأننا لم نكن هنا، بشّار يوسف.
27. أن تكون إنساناً، هيفاء بيطار.
28. لا أضلع تطال الضفّتين، جهاد عبيد.